صفي الدين عبد الله بن علي
المعروف بابن شكر الوزير الأيوبي
(548 ـ 622هـ/ 1153 ـ 2251م)

د/ سامية علي مصيلحي
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد
قسم التاريخ – كلية الدراسات الإنسانية
جامعة الأزهر – فرع البنات
القاهرة

obeikan.com

obeikan.com

صفي الدين عبد الله بن علي المعروف بابن شكر الوزير الأيوبي

(548 ـ 622هـ/ 1153 ـ 1225م)

لعب المصريون دورًا مُـمَيَّـزًا في النظـام الإداري والمـالي في العـصر الأيـوبي ، فتـولى بعضهم الوظائف الرئيسية والمهمة بالدولـة ، ومُنِحُـوا حريـة التـصرف في الأمـور التـي يباشرونها، ومن هؤلاء صفي الدين ابن شكر .

نشأته :

هـو عبد الله بن علي بن الحسين بن الحسـن بن منصـور بن إبـراهيم بـن عمـار ابـن منصور بن علي صفي الدين أبو محمد ابن القاضي أبي الحسن الـشيبي الـدَّمِيري المـالكي، المعروف بابن شكر .

ولـد بناحـية دَمِـيرة إحـدى قـرى مـصر[1] ، في تاسـع صـفر سـنة 548هـ/ 1153م . ولم يكـن مـن بنـي شـكر وإنمـا عرف بابـن شـكر لأنـه كـان ابـن عـم

---

(1) دميرة : بفتح أوله وكسر ثانيه وياء مثناة من تحت ساكنة وراء مهملة ، قرية كبيرة قرب دمياط ، وهما دميرتان إحداهما تقابل الأخرى على شاطئ النيل في طريـق مديريـة دميـاط ، والمقـصود هنـا دمـيرة القبلية وهي التي تعرف اليوم باسم كفر دميرة القديم ، انظر : يـاقوت الحمـوي : معجـم البلـدان 5 أجزاء ، طبعة بيروت 1990 ، جـ2 ، ص472 .

ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب ، طبعة بيروت 1980م ، جـ 1 ، ص509 .

محمـد رمزي : القامـوس الجغرافي للبلاد المصرية ، القسـم الثاني ، الجـزء الثـاني ، القـاهرة ، 1958 ، ص6، 86 ، 87.

كمال الدين أحمد بن جلال الدين شكر[2] لأمّه ، فلما رباه عرف به وقيل له ابن شكر[3] .

وكان ابن شكر كما وصفه الموفق عبد اللطيف : "رجل طوال تام القصب فعمها دُري اللون مشرب بحمرة له طلاقة محيا وحلاوة لسان وحُسن هيئة وصحة بنية"[4].

ولا شك أن وسامته وحسن هيئته كانت مسار إعجاب شعراء عصره ومادة خصبة استفادوا منها في نظم قصائد مدحه ، فقد قال عنه ابن سناء الملك :

يا ذهبي اللون أذهبْتَني ويا فريد الحسن دمعي فريد[5]

ويقول له في موضع آخر :

وقلت له أدِّ الزكاة لأهلها فوجهك مُنْرٍ من لُجِين وعَسجد[6]

ويقول ابن الساعاتي :

ووجه الضحى طلق الأسرَّة ضاحك كوجه صفي الدين يومَ سلامة[7]

---

(2) كمال الدين أبو السعادات أحمد ابن القاضي جلال الدين شكر ، تولى نظر الدواوين في الأيام الناصرية والعزيزية، توفي بثغر الإسكندرية عام 601 هـ .
انظر النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق د. محمد ضياء الدين الريس ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة سنة 1992 ، جـ29 ، ص39 .

(3) المقريزي : المقفى الكبير ، تحقيق محمد البعلاوي ، ط بيروت 1991 ، جـ4 ، ص595 ، المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ط1 القاهرة 1987 ، جـ2 ، ص371 ، وذكر العمري أنه كان يدعي نسبه إلى قريش بينما ذكر بعض نسله أنهم من العرب وليسوا من قريش ، انظر : العمري : مسالك الأبصار ، جـ13 ص305 ، ص306 .

(4) الصفدي : الوافي بالوفيات ، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، ط بيروت ، 2000م ، جـ17 ، ص176 ، المقريزي : المقفى الكبير ، جـ4 ص599 .

(5) ديوان ابن سناء الملك جزآن ، تحقيق محمد إبراهيم نصر ، ط القاهرة 1969 ، جـ2 ، ص65 .

(6) لجين : فضة . العسجد : الذهب ، انظر : نفسه ص 81 .

(7) ديوان ابن الساعاتي ، تحقيق أنيس المقدس ، بيروت 1938م ، ص 240 .

أما ابن النبيه المصري فيتغزل في حُمرة خديه قائلاً :

حـــذار من جمرة خديه فقـد تجاسر الخال عليه فاحترق [8]

نشأ ابن شكر نشأة صالحة ، فتفقه في القاهرة[9] على مذهب الإمام مالك ابن أنس رضي الله عنه ، على يد الفقيه أبي بكر عتيق البجائي وبه تخرج[10] ، ثم رحل إلى الإسكندرية[11] ، وتفقه بها على يد الإمام شمس الإسلام أبي القاسم مخلوف ابن علي ابن جارة ، وسمع منه ومن الإمام أبي الطاهر إسماعيل بن مكي بن عوف الزهري وأبي الطيب عبد المنعم بن يحيى الحميدي وأبي الحسين محمد بن أحمد ابن أبي نوح النحوي وسمع من الحافظ السلفي إنشادًا[12] .

وأجاز له من الشاميين الحسين أحمد بن حمزة بن علي السلمي وأبو عبد الله محمد ابن علي بن صدقة الحراني وأبو محمد عبد الرحمان بن علي بن المسلم اللخمي وأبو الفضل إسماعيل بن علي بن إبراهيم الحنزوي وغيرهم[13] .

---

(8) ديوان ابن النبيه المصري ، تحقيق عمر محمد الأسعد ، ط أولى ، القاهرة 1969 ، ص 420 ، 419.

(9) الزركلي : الأعلام ، ط ثانية ، القاهرة 1959م ، جـ 4 ، ص243 .

(10) المنذري : التكملة لوفيات النقلة ، تحقيق د. بشار عواد معروف ، ط بيروت 1988 ، مجلد 3 ، ص157 ترجمة رقم 2061 ، الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق بشار عواد معروف ، ط بيروت 2003م ، مجلد 13 ، ص706 ترجمة رقم 96 ، الصفدي : المصدر السابق ، ص176 . ابن فرحون : الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب ، ط أولى ، القاهرة 1351هـ ، ص143 .

(11) ساد مذهب الإمام مالك بالاسكندرية طوال العصر الأيوبي لكثرة الوافدين إليها من المغاربة المعتنقين المذهب المالكي لطلب العلم أو الحج أو التجارة، انظر : شلبي إبراهيم الجعيدي ، طبقة العامة في العصر الأيوبي ، الهيئة العامة للكتاب ، 2003 م ، ص 170 .

(12) ابن فرحون : المصدر السابق ص143 ، المقريزي : المقفى الكبير جـ4 ، ص595 . المنذري : التكملة جـ3 ، ص157 .

(13) المقريزي : المصدر السابق جـ4 ، ص595 ، المنذري : المصدر السابق جـ3 ، ص157.

وأجاز له من المصريين أبو محمد عبد الله بن بري بن عبد الجبار النحوي وأبو القاسم هبة الله بن علي بن سعود الأنصاري وأبو عبد الله محمد بن حمد بن حامد الأرتاحي[14] .

وحضر الدروس وناظر الفقهاء وأفتى[15] ، وبرع في الفقه المالكي وصنف فيه كتابًا سماه " البصائر نور فيه على الأوائل والأواخر "[16] ، وجَعل لمن يحفظه مائة دينار فتسابق الكثيرون لحفظه لينالوا من إنعامه وكرمه "فعرضه عليه زيادة على مائتي نفر" فأعطاهم وأجزل لهم[17] ، وكان ذلك في مدة وزارته ، وحدث بدمشق والقاهرة وغيرهما[18] . وله :

مهما تهاون في أمري امرؤ وغدا ... مبلغا لا أُرى إلا مبجله
وإن أساء مسيء فوق طاقته ... أحسنت مجتهدا حتى أُخجله[19]

غير أن البيئة الصالحة التي احتضنته في صغره ودراسته للعلوم الشرعية واتصاله بالعلماء ، كل هذا لم يؤثر فيه إلا ظاهريًا ، فقد وُصِف ابن شكر بأنه : "كثير الدهاء مع هوج وخبث في طيش ورعونة مفرطة ، وحقد لا تخبو ناره ، ينتقم ويظن أنه لم ينتقم، فيعود ينتقم ، لا ينام عن عدوه ، ولا يقبل معذرة أحد ولا إنابة ، ويجعل الرؤساء كلهم أعداءه ، ولا يرضيه من عدوه إلا إهلاكه ، وقطع أثره ، وإذا انتقم لا يرحم أحدًا ، ولا يبالي بعاقبة "[20] .

---

(14) المنذري : نفسه ، ابن فرحون : المصدر السابق ، ص143 .

(15) العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق محمد عبد القادر خريسات وآخرين ، الإمارات سنة 2004م ، جـ11 ، ص305 ، ترجمة رقم 106 .

(16) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، جزآن ، نشره جعفر الحسني ، ط دمشق ، 1948 ، 1951م ، جـ2 ، ص334 .

(17) العمري : المصدر السابق ، جـ13 ، ص306 .

(18) المنذري : التكملة ، جـ3 ، ص157 ، الذهبي : تاريخ الإسلام ، مجلد 13 ، ص706 .
الصفدي : الوافي بالوفيات ، جـ17 ، ص176 .

(19) ابن فرحون : المصدر السابق ، ص143 .

(20) المقريزي : المقفى الكبير جـ4 ص599 ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم ، ط بيروت 1413هـ ، جـ22 ، ص294 ، الكتبي : فوات الوفيات ، تحقيق علي محمد ابن يعوض الله وعادل أحمد عبد الموجود ، ط بيروت 2000م ، جـ1 ، ص549 / الصفدي : المصدر السابق جـ17 ، ص176 .

ووصفه القفطي بأنه كان : "أحمق قليل التدبير حاسدًا لكل ذي فضيلة"[21] . أما العُمري فقال إنه كان يحب التقدم لدى الملوك : "لا يبالي بما يحتمل ولا يعبأ بسحاب الدم ولو احتفل"[22] . وكان ابن شكر يظهر لأعدائه غير ما يبطن حتى إذا آمن له عدوه لا يلبث أن ينقضَّ عليه دون رحمة أو هوادة وينتقم منه انتقامًا شديدًا[23]

ترقيه في مناصب الدولة :

عمل صفي الدين ابن شكر في مباشرة الدواوين وظل يترقى في المباشرات حتى ولي نظر الدواوين على عهد السلطان صلاح الدين[24] ففي 10 صفر من عام 580هـ/ 1184م عُقد مجلس لأصحاب الدواوين للمفاضلة بين ابن شكر وابن عثمان فاز فيها في البداية ابن عثمان بعد أن قدم عرضًا بزيادة خمسة عشر ألف دينار على الارتفاع ، إلا أنه صرف بعد ثلاثة أيام بابن شكر ، وهكذا أصبح ابن شكر ناظرًا للدواوين[25] .

ومنذ ذلك الحين "شرع في قطع الأرزاق وإحداث المطالبة"[26] فتصدى له القاضي الفاضل[27] وكان : "يمقته مقت المريض الدواء ، ويبغضه بغض الكلاب الماء ، وكان يقصد تقييد قلمه ، وتقليل كَلِمه" فعمل على عزله ووصفه بالظلم والقسوة .

---

(21) القفطي : إنباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، 1986، جـ1، ص267 .

(22) العمري : المصدر السابق ، ص305 .

(23) محمود الحويري : العادل الأيوبي ، القاهرة 1979م ، ص17 .

(24) العمري : المصدر السابق جـ11 ، ص305 ، ص306 .

(25) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة 1939 ، جـ1 ، قسم1، ص88 .

(26) العمري : المصدر السابق ، ص306 .

(27) القاضي الفاضل : عبد الرحيم بن علي بن الحسن البيساني ، ولد في 15 جمادى الآخرة عام 529 هـ وعمل بكتابة الإنشاء في الدولة الصلاحية ووزر لصلاح الدين فكان مستشارًا له ، وكان كاتبًا سديدًا بليغًا وله أوقاف كثيرة على أعمال الخير . توفي ليلة الأربعاء 7 من ربيع الآخر عام 596 هـ . انظر : ابن كثير : البداية والنهاية ، ط بيروت ، د . ت ، جـ13 ، ص24 ، 25 . النويري : نهاية الأرب جـ29 ، ص13 ، ص18 .

ولكن على الرغم من مكانة القاضي الفاضل في دولة السلطان صلاح الدين إلا أنه لم يستطع إزاحته من منصبه وذلك "لأن الملك العادل[28] كان ظهيرًا لابن شكر وممشيًا لأموره"[29].

وقد قال عنه القاضي الفاضل ذات مرة :

وأمـــا ابـن شـــــكر هـــذا الـــذي لا يشـكر
وإذا ذكـــرت الأشـيـاء فهو الشيء الذي لا يذكـر

فقيل له : ما هو الشيء الذي لا يذكر ؟ قال : الشيء الذي لا يذكر[30].

أما ابن شكر فلم يدخر جهدًا في إنجاز أعماله لينال رضى السلطان عنه فكان : "كافيا في عمله يسد الأعمال ويثمر الأموال وينهض بتكاليف الكُلف وأعباء المهمات وكان يعجب السلطان منه كفايته ويلبسه على علاته"[31].

زاد التقارب بين العادل وابن شكر في سنة 587هـ/ 1191م عندما عين السلطان صلاح الدين أخاه العادل رئيسًا عامًّا لديوان الأسطول[32]. وكانت مهمة هذا الديوان

---

(28) الملك العادل : محمد بن أيوب بن شادي أبو بكر الملقب بالملك العادل أخو السلطان صلاح الدين الأيوبي ، ولد عام 540هـ وكان ينوب عنه بمصر أثناء غيابه في الشام ، تنقل في الولايات إلى أن استقل بملك مصر سنة 596هـ/ 1199م وضم إليها الديار الشامية ثم ملك أرمينيا سنة 604هـ/ 1207م وبلاد اليمن عام 612هـ/ 1215م . مات في 7 جمادى الآخرة عام 615هـ/ 1218 ودفن في مدرسته العادلية . انظر : الموسوعة العربية الميسرة جـ24 ، ط2 ، الرياض 1999م ، ص118.

(29) العمري : المصدر السابق ، جـ13 ، ص305 ، 306 .

(30) الصفدي : المصدر السابق ، جـ17 ، ص177 ، الكتبي : المصدر السابق ، جـ1 ، ص550 ، 551 .

(31) العمري : المصدر السابق ، جـ13 ، ص306 .

(32) أدرك صلاح الدين أهمية الأسطول في حروبه ضد الصليبيين ، ولهذا أولى الأسطول عناية فائقة فأفرد له ديوانًا عرف بديوان الأسطول "وأفرد له من الأبواب الديوانية الزكاة بديار مصر وكانت تبلغ في السنة شيئًا كبيرًا بحيث إنها ضمنت بخمسين ألف دينار مصرية وأفرد له الحُبس الجيوش بالبرين الشرقي والغربي ، وكان في هذا الحبس عدّة نواح بالجيزة وضواحي القاهرة ، منها سفط ونهيا والأميرية وغير ذلك وأفرد له النطرون والخراج وما معه من ثمن القَرَظ ، وساحل السنط والمراكب الديوانية وناحيتي أسني وطنبذى" . انظر المقريزي : المقفى الكبير ، جـ4 ، ص 596 ، الخطط ، جـ 2 ، ص 194 .

الإنفاق على العاملين بالأسطول[33] ، والإنفاق على دور صناعة السفن وإمدادها بكل ما تحتاج إليه من أخشاب[34] . فاستناب العادل "في مباشرته وعمالته" صفي الدين ابن شكر[35] .

ومنذ ذلك الحين "اشتهر ذكره" ولازم العادل وتقرب منه[36] . وساعدته الظروف بوفاة ابن النحال النصراني[37] كاتب الملك العادل فتقدم وأخذ مكانه ، وتمكن ابن شكر "من العادل تمكنًا لا مزيد عليه"[38] لما رآه من شهامته وصرامته وإقدامه[39] . وصحبه في طريقه إلى مصر طلبًا للأفضل ابن صلاح الدين[40] - بعد رجوع الأخير عن حصار دمشق وعودته إلى مصر[41] - وفي طريقهما إليها استحلف ابن شكر الملك العادل ببيت المقدس "إنه إن قدر الله تعالى له بملك الديار المصرية يمكنه من المصريين"

---

(33) المقريزي : الخطط ، جـ2 ، ص194 .

(34) السيد عبد العزيز سالم ، أحمد مختار العبادي : تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ، ط1 ، الإسكندرية 1993م، ص273 .

(35) المقريزي : الخطط جـ2 ، ص194 ، المقريزي : السلوك ، جـ1 ، قسم 1 ، ص108 .

(36) المقريزي : المقفى الكبير ، جـ2 ، ص596 .

(37) ابن النحال النصراني : أبو سعيد بن أبي اليمن النحال ، كان نصرانيًا فأسلم على يد الملك العادل بعد عوده مع الأفضل علي بن صلاح الدين إلى مصر سنة 582هـ ، انظر المقريزي : السلوك ، جـ1 ، قسم1 ، ص192 .

(38) الذهبي : العبر في خبر من غبر ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، الكويت 1984 ، جـ5 ، ص90 .

(39) النويري : نهاية الأرب ، جـ29 ، ص55 ، ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ13 ، ص22 .

(40) الأفضل نور الدين علي أكبر أبناء صلاح الدين ، أوصى له أبوه بالسلطنة بعده ، لكنه كان مستهترًا نجح عمه العادل في أخذ دمشق منه ، ثم بعد وفاة العزيز عثمان واستيلاء الأفضل على مصر نجح أيضًا عمه في انتزاعها منه ، ولم يعد له سوى حاني وجبل جور من ديار بكر . توفي في صفر عام 622هـ في قلعة سمسياط عن 57 عامًا ، انظر : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ط دار الكتب، القاهرة 1935 – 1956 ، جـ 6 ، ص 120 ، 262 ، سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ، القاهرة 1993 ، ص 75 – 81 .

(41) عن الصراع بين العادل والأفضل انظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، تصحيح د. محمد يوسف الدقاق ، بيروت 1987 ، جـ1 ، حوادث : 589هـ ، 592هـ ، 595هـ ، 596هـ ، 622هـ .

فحلف له العادل على ذلك ، فلما ولي السلطنة استوزره ومكّنه[42] .

وزارة ابن شكر الأولى (596 ـ 609 هـ / 1200 ـ 1212م) :

في يوم الجمعة 16 ربيع الآخر من سنة 596هـ/ 4 فبراير 1200م دخل العادل القاهرة في صحبة وزيره صفي الدين ابن شكر[43] "فاستشعر أصحاب الدواوين مهابة الوزير صفي الدين ابن شكر الظاهرة" وأنزله العادل بالحجرة الفاضلية بالدار السلطانية[44]. ولقبه بالصاحب[45] .

تمتع الوزير صفي الدين ابن شكر بنفوذ كبير في دولة السلطان العادل الذي سلم له شئون الدولتين المصرية والشامية فنهض فيهما مستفيدًا من خبرته "بصناعة الكتابة وجمع الأموال من وجوهها والحديث على الحسابات والنظر في ترجية الارتفاعات" فاستقل بإدارتها حتى صار يستخدم المستخدمين ويصرف الأمور ويأمر وينهي ولا يُعمل في الدولة شيء صغير أو كبير إلا بعلمه وبثبوت خطه حتى الملك العادل لم يكن ينفرد عنه بشيء ولا يطلق ولا يمنع ولا يوقع على شيء إلا بعلمه ورأيه[46] .

---

(42) النويري : نهاية الأرب ، جـ29 ، ص11 ، ص12 ، ص55 .
هكذا كان المصريون أول من فكر ابن شكر في معاقبتهم لأنهم كما ذكر العيني "كانوا ينتقصونه" عندما كان كاتبًا للملك العادل ، انظر : عقد الجمان في تواريخ أهل الزمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 1584 ، جـ19 ورقة 243 .

(43) ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ، مجلد 3 مطبوعات جمعية الآثار القبطية مجلد 3 جـ2 ، نشر د. أنطون خاطر وأرولد بورمستر ، القاهرة 1970م ، ص105 .

(44) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ، تحقيق إبراهيم الزيبق ، ط بيروت 1997 ، جـ4 ، ص457 ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، جـ6 ، ص151 .

(45) الصاحب : من ألقاب الوزراء وهو مختص بأرباب الأقلام ، أول من لقب به من الوزراء كافي الكفاة إسماعيل بن عباد لأنه كان يصحب الأستاذ ابن العميد فكانوا يقولون صاحب ابن العميد ، ثم غلب عليه اللقب حتى قيل له الصاحب مجردًا ، ثم أطلق هذا اللقب في العصر الأيوبي على صفي الدين ابن شكر وكذلك كل من تولى الوزارة بعده ، انظر : القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ1 ، ص475 ، جـ6 ، ص17 ، ص18 ، المقريزي ، الخطط ، جـ2 ، ص223 .

(46) ابن المقفع : المصدر السابق ، مجلد 3 ، قسم 2 ، ص106 .

وكان صفي الدين يظهر أمانة مفرطة فلا يأخذ من مال السلطان فلسًا[47] واحدًا "فإذا لاح له مال عظيم احتجنه" وعملت له "قبسة العجلان" (كتاب مختصر في النحو) فأمر كاتبه أن يكتبها ويردها وقال : "لا نستحل أن نأخذ منك ورقًا"[48] .

وكان يسافر مع السلطان فلا يخرِج إلا بغلة واحدة ، "تجنب معه ويركب هو على جمال الثقل توطأ له على بعض الحمول ليركب" ولا يصطحب معه غلامًا ولا طباخًا بل تخدمه غلمان السلطان وكانت تنصب له الخيمة ويأتيه الطعام والشراب من مطبخ السلطان ومن شرابخاناته[49] فلا يأخذ منها إلا بقدر ضئيل فيكتفي "بالزبدية الواحدة ولا يزيد عليها"[50] .

المصادرات والمؤامرات ضد رجال الدولة والعامة :

لم يتمكن الصاحب صفي الدين من مصادرة المصريين فور دخوله مصر بسبب المجاعة[51] والوباء والزلازل[52] التي حلت بالبلاد عام 596هـ / 1200م ، فضلا عن ملازمته العادل في بلاد الشام[53] .

---

(47) فلسًا : الفلس وجمعه فلوس عملة صغيرة وكانت في مصر على نوعين أحدهما المطبوع بالسكة وثانيهما غير المطبوع ، وكان الصنف الثاني عبارة عن قطع مكسرة من النحاس الأحمر أو الأصفر ويعبر عنها بالعتق ، انظر : د. سعيد عاشور. العصر المماليكي في مصر والشام ، القاهرة ، 1994 ، ص44 .

(48) الذهبي : تاريخ الإسلام، مجلد 13 ، ص707 ، ص708 . الكتبي: فوات الوفيات، جـ1، ص549.

(49) الشرابخاناه : بيت الشراب ويحوي مختلف أنواع الأشربة التي يحتاج إليها السلطان فضلا عن الأواني النفيسة المصنوعة من الصيني الفاخر ، انظر : د. سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص434 .

(50) العمري : مسالك الأمصار ، جـ 11 ، ص306 .

(51) عن المجاعة والوباء انظر : عبد اللطيف البغدادي ، رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1998م، ص 132 – 146 – 151 ، المقريزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشر محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، القاهرة ، 1940م، ص 29 – 32 ، النويري : نهاية الأرب ، جـ 29 ، ص 12 ، 13 ، ابن الفرات : تاريخه ، نشر حسن محمد الشماع ، البصرة ، 1967م، جـ 4 ، قسم 2 ، ص 207 – 209 .

(52) عن الزلازل انظر : سامية علي مصيلحي : الزلازل وآثارها في مصر الإسلامية ، بحث ألقي في مؤتمر الدراسات الإنسانية والقضايا المعاصرة ، القاهرة 2003م ، ص 18 – 20 .

(53) النويري : المصدر السابق ، ج 29 ، ص 55 .

وكان أول ما قام به هو قطع الصدقات التي رتبها حكام مصر من قبل "لأهل الفاقات والرواتب للأقارب والأجانب مما تساوى فيه في أيام دولتهم الفقراء والأقوياء والأغنياء والضعفاء لأنه معروفهم وخيرهم ، كان واصلاً إلى كافة الناس أعدائهم وأوليائهم فأشار هذا الوزير بقطع ذلك جميعه فقطع"[54] .

ثم اتجه في عام 602هـ / 1205 - 1206م إلى أكابر المصريين فأوقع بهم وصَادرَهُم[55] ، كما صَادر أصحاب الدواوين وموظفي الدولة والمتعينين "وأهانهم لما كان في باطنه منهم" واستصفى أموالهم[56] ، وشدد على كل هؤلاء في العقوبة ونكل بهم أشد تنكيل "وفعل بهم ما أوجب حقد الناس عليه"[57] .

وكان هدفه من ذلك إبادة أرباب البيوتات ومحو آثارهم وهدم ديارهم[58] ، واستخدم الوزير في ذلك كل ما في يده من قوة للفتك بأعدائه حتى يطمئن على منصبه منهم .

حرص ابن شكر - منذ اليوم الأول لوزارته - على ألا يكون له منافس في شئون الدولة، فسعى لدى العادل للنيل من رجال الدولة الذين شعر بتهديدهم لمركزه .

وكان العادل - لما أراد الانفراد بالحكم - قد أحضر الناس للحلف له فأبى الفقيه ضياء الدين بن الوراق أن يحلف له وقال : "ما هذا الحلف ؟ بالأمس حلفتم للمنصور[59]، فإن

---

(54) ابن المقفع : المصدر السابق ، مجلد 3 ، ج 2 ، ص 106 .

(55) ابن الفرات: المصدر السابق، ج 5، قسم 1، ص 176 ، المقريزي: السلوك ، ج1، قسم1، ص 192.

(56) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، القاهرة ، د.ت، ص 9 ، النويري : المصدر السابق ، جـ 29 ، ص39.

(57) النويري : نفسه ، ص 55 ، وذكر ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ، ج 6 ، ص 167 ، أن المصريين كرهوا العادل لمبالغة وزيره في الظلم ، فلم يكن محببًا إلى الرعية .

(58) المقريزي : الخطط ، ج 2 ، ص 372 ، 373 ، الذهبي : تاريخ الإسلام ، مجلد 13 ، ص 707 ، وصف ابن شكر بأنه "كان مغرى بقلع البيوت الأصيلة في التقدم" ، انظر : ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب ، تحقيق سهيل ذكار ، ج 6 ص 2951 .

(59) الملك المنصور : ناصر الدين محمد بن عبد العزيز عثمان بن صلاح الدين ، وكان في العاشرة من عمره عند وفاة أبيه عام 595هـ/ 1198م، انظر : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج6، ص146 .

كانت تلك باطلة فهذه باطلة ، وإن كانت تلك صحيحة فهذه باطلة"، فقال الصاحب صفي الدين ابن شكر للعادل إن هذا الفقيه أفسد عليه الأمور ، وأراد ابن شكر بذلك أن ينتقم من ابن الوراق لأنه لم يكن في استقباله عندما جاء إلى مصر ولم يسلم عليه . فأمر العادل بالحوطة على جميع ممتلكاته واعتقاله بالرصد[60] .

ولم يكتفِ ابن شكر بمصادرة رجال الدولة ، بل تعرض لأوقاف المدارس فأرسل "يطلب معرفة ريعها ويتحدث فيه "فتصدى له الشيخ شهاب الدين أبو الفتح محمد بن محمود بن محمد الخراساني الطوسي[61] وأمر بضرب من حضر من جهة الوزير ، ثم توجه إلى القلعة ثائرًا "ورسم للوزير أن لا يتعرض لشيء يتعلق به وخرج الوزير بحجته فلم يلْتَفِتْ إليه ولا سَلَّم عَليه" ودفع عن نفسه وعن الناس شر الوزير وثبت أمامه[62] .

وفي عام 602 هـ / 1205 - 1206م قبض على الأمير عبد الكريم أخي القاضي الفاضل "وأخذ خطه بعشرين ألف دينار فأداها" . كذلك أخذ من شرف الدين إبراهيم بن عبد الرحمن ابن قريش - وكان من الأثرياء - خمسة آلاف دينار[63]، كما صادر بني حمدان وبني الجباب وبني الجليس وأعيان الكتاب المستوفين[64] ، وأكابر النصارى منهم[65]

---

(60) ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية ، القاهرة ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، ط أولى، القاهرة ، 1996م ، ص 91 ، 92 ، المقريزي : الخطط ، ج 2 ، ص 373 ، 374 .

(61) من علماء الشافعية ، ولد عام 522هـ ، ووعظ ببغداد ودخل مصر وبنى له الملك تقي الدين عمر بن شاهنشاه المدرسة المعروفة بمنازل العز ، وكان يأتيه الفقهاء والطلبة . مات بمصر عام 596هـ / 1200م ، انظر : ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ، تحقيق الحافظ عبد العليم خان ، بيروت ، 1407هـ ، ج 2 ، ص 43 ، 44 ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج 21 ، ص 387 ، 389 .

(62) ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ج 2 ، 44 وما فعله ابن شكر مع الفقيه ورغبته في مصادرة الأوقاف يدل على أنه لم يوقر العلماء ولم يستفد بعلمه ودراسته الدينية .

(63) المقريزي : السلوك ، ج 1 ، قسم 1 ، ص 165 ، 166 ، لم يفرق ابن شكر في مصادراته بين أصحاب الديانات حيث لاقى أهل الذمة على يديه ما لاقاه المسلمون.

(64) المستوفين : جمع مستوفٍ ، وهو من كتاب الأموال بالدواوين وعمله ضبط الديوان التابع له والتنبيه على ما فيه من مصلحته من استخراج أمواله ونحو ذلك . انظر: المقريزي : السلوك ، ج 1 ، قسم 1 ، ص 192 ، حاشية 2 .

(65) ابن العميد : المصدر السابق ، ص 9 .

ومن الذين تعرضوا لإهانات الصاحب ابن شكر القاضي عماد الدين الكاتب[66] وكان فريد عصره في النظْم والنثر ، ومع هذا تغيرت أحواله بعد وفاة صلاح الدين ، قال عنه ابن خلكان : "وقد رأيته في مجلس ابن شكر مزحومًا في أخريات الناس" . هكذا كان يفعل ابن شكر مع العلماء يبعدهم حسدًا لهم "وتوفي عماد الدين الكاتب في أول رمضان عام 597هـ / 1201م بعدما قاسى مهانات ابن شكر"[67]

ومن الفقهاء الذين تعرضوا لإهانة الوزير الصاحب صفي الدين ابن شكر ، الفقيه نصر فقد ضربه الوزير "في وجهه بالدواة فأدماه"[68] . وتدخل ابن شكر لنفي وعزل بعض رجال الدولة لأمور في نفسه ، فنفى الحافظ عبد الغني المقدسي[69] إلى المغرب وكان عالمًا بالحديث ، وله تصانيف شهيرة فمات قبل أن يصله كتاب النفي في 23 ربيع الأول من عام 600هـ / 1203م[70] .

وكان ممن حسدهم ابن شكر أيضًا القاضي شمس الدين بن التبني وكان السلطان العادل قد أحبه وقربه إليه بعد أن تبين له إخلاصه في أثناء حصاره بدمشق عندما اقترض

---

(66) القاضي عماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد بن محمد الكاتب ، ولد عام 519هـ بأصبهان وكان جامعًا لفنون كثيرة من الأدب والفقه والتاريخ ، وله نظم بديع وكتب لنور الدين وصلاح الدين ونال عندهما مكانة كبيرة ، وله "البرق الشامي" و"فريدة القصر" و"الفتح القسي في الفتح القدسي" وغير ذلك ، توفي 597هـ / 1201 م . انظر : أبو شامة : ذيل الروضين ، عَرَّفَهُ : محمد زاهد بن الحسن الكوثري وراجعه السيد عزت العطار الحسيني ، ط دار الكتب ، القاهرة 1947 ، ص 152 ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج 2 ، ص 347 ، 348 ، ترجمة رقم 180 .

(67) الذهبي : نفسه .

(68) المقريزي : السلوك ، ج 1 قسم 1 ، ص 166 حوادث عام 602هـ .

(69) الحافظ عبد الغني المقدسي : ولد عام 541هـ ، تنقل بين الأمصار طلبًا للعلم ، وكان دائم الخلاف مع العلماء ، ثم استقر بالقاهرة وحدث بها فثار عليه الفقهاء بمصر وكتبوا إلى الوزير صفي الدين فأمر بنفيه إلى المغرب ، ومن مصنفاته : كتاب الكمال في أسماء الرجال ، والأحكام الكبرى والصغرى وغير ذلك ، انظر : ابن كثير : البداية والنهاية ، ج 13 ، ص 38 ، 39 .

(70) ابن كثير : نفسه .

له أموالا من التجار وضمنها، فعمل الوزير على إبعاده عن السلطان فما زال به حتى أخرجه من مصر[71] .

وعزل علم الدين إسماعيل بن أبي الحجاج ، وكان متوليا ديوان الجيش[72] الناصري منذ عام 583هـ / 1187م خلفًا لأبيه ، وظل به حتى "آذاه وعزله" في عام 602هـ / 1205 – 1206م ، فغادر مصر إلى حلب ودخل في خدمة الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين إلى أن مات بها[73] .

وتدخل الوزير أيضًا لعزل قاضي العسكر البدر بن الأبيض في عام 603هـ / 1206 – 1207م ، وعين بدلا منه نجم الدين خليل بن المصمودي الحموي[74] .

وعزل خطيب جامع مصر أبا محمد عبد الحكم عن الخطابة[75] ، فكتب إليه يشكو بؤس حاله ويقول :

مِتُّ جوعًا وأنت حي كريم وبلاء كما علمت عظيم
وديون جلت عليّ مع الفقر وهذا هو العذاب الأليم

وكتب تحتها : "وقد عز الأمر وضاق الخناق وجاءت من الفقر أمور لا تطاق"

---

(71) ابن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، ط الهند ، 1952 ، ج 8 ، قسم 2 ، ص 564 .

(72) ديوان الجيش : يقوم بتوزيع الإقطاعات ، والصرف على الجيش والتعبئة والأسلحة والمؤن والحاميات والحصون والقلاع ، وتقيد فيه أسماء الجنود وأرزاقهم ، انظر : حسنين ربيع : النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ، ط 1 ، القاهرة 1964م ، ص 62 .

(73) ابن العديم : بغية الطلب ، ج 4، ص 1670 ، المقريزي : المصدر السابق ، ج 1 ، قسم 1 ، ص 192، ابن الفرات: المصدر السابق ، ج 5 ، قسم 1 ، ص 176 .

(74) المقريزي : المصدر السابق ، ج 1 ، قسم 1 ، ص 166 ، ابن نظيف الحموي : التاريخ المنصوري ، تحقيق أبو العبد دودو ، دمشق 1981 ، جـ 1 ، ص 54 .

(75) عرف بابن العراقي ، ولي نيابة الحكم بالفسطاط والخطابة بالجامع العتيق ، توفي سنة 613هـ .
انظر ابن سعيد : المُعزب في حلى المعزب ، ج 1 ، قسم خاص بمصر ، تحقيق زكي محمد حسن وآخرين ، القاهرة 1953م ، ص 257 .

فلأي باب غـير بابك أرجـع وبأي جود غير جـودك أطمـع
سدت عليّ مسالكي ومذاهبي إلا إليـك فَـدُلني مـا أصنع
فكأنما الأبـواب بابك وحـده وكأنمـا أنت الخَلِيقـة أجمع

ولم يعش خطيب جامع مصر بعد هذه الشكوى طويلا فمات بعد أربعة أشهر في شعبان من عام 613هـ/ 1216م[76].

ويبدو أن كثيرًا من رجال الدولة ممن خافوا بأسه وسطوته فضلوا الخروج من مصر والاختفاء عن أعين وزيرها، من هؤلاء ابن قاضي دارا[77] وزير الملك الكامل الأيوبي[78].

وكان الوزير الصاحب "يكرهه ويضاده" فظل يغري الملك العادل به حتى نقم عليه وطلبه فخاف عليه الكامل ابن العادل وأخرجه من مصر ومعه ولداه والقليل من المال فقصد حلب حيث أكرمه صاحبها الملك الظاهر.

ثم إن الكامل أرسل يستدعيه مرة أخرى إلى مصر، فخرج مسرعًا ونزل بعين المباركة بظاهر حلب، استعدادًا للسفر إلى مصر، ففوجئ في ليلة الرابع والعشرين من ذي القعدة من عام 601هـ/ 1205م بنحو خمسين فارسًا، أحاطوا به أثناء الليل، وأيقظوه ثم قتلوه وسط غلمانه وقالوا لهم: "احفظوا أموالكم فما كان لنا غرض سواه"، ووصل الخبر إلى الملك الظاهر صاحب حلب فارتاع له وجدَّ في طلب قاتليه، فلم يصل لهم "فكانت هذه القضية من أعجب ما سمع"[79].

---

(76) نفسه، ص 257، 258، ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1968م، ج 1، ص ص35، 36.

(77) الوزير أبو محمد مختار بن أبي محمد بن مختار المعروف بابن قاضي دارا، ودارا بلدة بين نصيبين وماردين، كان وزيرًا ومستشارًا للملك الكامل ابن العادل الأيوبي، قتل عام 601هـ بظاهر حلب. انظر: ابن الفرات: المصدر السابق، ج 5، قسم 1، ص ص 31، 32.

(78) كان الملك العادل قد قسم دولته بين أولاده فأعطى الملك الكامل مصر فقام بأعمال السلطنة بها في حياة أبيه، ولما مات الملك العادل تفرد الكامل بالخطبة في ديار مصر وأعمالها واستقل بأمورها وتدبير أحوالها، انظر: ابن تغري بردي: النجوم، جـ 6، ص 163، ص 227.

(79) المقريزي: السلوك، ج 1، قسم 1، ص ص 164، 165، ابن الفرات: المصدر السابق، ج 5، قسم 1، ص ص 31، 32، لا يشك القارئ أن الوزير ابن شكر وراء قتله.

وهناك الأسعد بن مماتي[80] صاحب الدواوين بمصر ، وكان بينه وبين الوزير عداء قديم ، بسبب إهانة وَقَعَت من الأسعد بن مماتي في حق ابن شكر أيام رئاسته للديوان - بينما كان ابن شكر موظفًا صغيرًا به[81] - "فحقدها عليه" إلى أن تمكن منه . فلما تولى الوزارة بمصر أحضر ابن مماتي وقربه منه "وفوض إليه جميع الدواوين التي كانت باسمه قديمًا"

وظل الأمر على ذلك سنة كاملة ثم دبر له المؤامرات[82] "ووضع عليه المحالات وأكثر فيه التأويلات ولم يلتفت إلى أعذاره ولا أعاره طرفًا لاعتذاره فنكبه نكبة قبيحة" ، وادعى عليه أموالاً كثيرة وطالبه بها فلم يستطع دفعها لأنه كان عفيفًا "فأحال عليه الأجناد" فطالبوه بالأموال وآذوه ثم اشتكوه لابن شكر "فحكمهم فيه" وحكى ابن مماتي ما وقع عليه من هؤلاء الأجناد من إهانة فقال : "عُلِقْتُ في المطالبة على باب داري بمصر على ظهر الطريق في يوم واحد إحدى عشر مرة" فلما لم يجدوا لديه مالاً اتفقوا معه على تقسيط الأموال المطلوبة منه فطلب منهم أن يطلقوه ليستجدي من الناس، وعندما تركوه اختفى في القرافة في مقبرة الماذرائيين[83] ، وأقام بها سنة ، فلما ضاق به الحال قرر الهروب إلى الشام واجتهد حتى لا يعلم بخبره أحد، فلحقه في الطريق فارس وسلم إليه كتابًا ، فإذا هو من ابن شكر يقول فيه : "لا تحسب أن اختفاءك خفي علي فكانت أخبارك تأتيني كل يوم وإنك كنت في قبور الماذرائيين بالقرافة منذ يوم كذا ، وإنني اجتزت هناك فرأيتك بعيني ، ولما هربت الآن علمت خبرك ولو أردت ردك لفعلت ، ولو علمت أنك قد بقي لك مال ، أو حال لما تركتك ، ولم يكن ذنبك عندي مما يبلغ أن أتلف معه نفسك ، وإنما كان مقصدي أن أدعك تعيش خائفًا فقيرًا غريبًا مهججًا (طريدًا) في البلاد فلا تظن أنك

---

(80) ابن مماتي : الأسعد أبو المكارم ابن الخطير أبي سعيد مهذب بن منشا الكاتب المعروف بالقاضي الأسعد ، كان نصرانيًا ثم أسلم ، نظر في ديوان الجيش الصلاحي ثم ولي نظر الدواوين ، وله مصنفات عديدة ، توفي عام 606هـ ، انظر : النويري : نهاية الأرب ، جـ 29 ، ص ص 51 ، 52 .

(81) محمد زغلول سلام : الأدب في العصر الأيوبي ، القاهرة ، 1967 ، ص 334 .

(82) انظر : ص 4 في حيله في الانقضاض على أعدائه .

(83) الماذرائيين : أسرة فارسية الأصل تنسب إلى ماذرايا وهي قرية من أعمال البصرة نزح كثير من أفرادها إلى مصر وتولوا العديد من المناصب الرئيسية في الدولة في العصر الطولوني والإخشيدي حتى وصل بعضهم إلى منصب الوزارة ، انظر : سيدة الكاشف : مصر في عصر الإخشيديين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة 1989 ، ص37 وما يليها .

هَربت مني بمكيدة صحت لك عليّ فاذهب إلى غير دعة الله" ثم تركه وانصرف فواصل ابن مماتي طريقه إلى حلب حتى وصلها سنة 604هـ/ 1207 - 1208م، وظل بها مكرمًا عند صاحبها الظاهر غازي حتى مات عام 606هـ/ 1209 - 1210م[84].

وفر منه القاضي الأشرف بهاء الدين أحمد بن القاضي الفاضل (ت 643هـ) إلى بغداد واستشفع بالخليفة الناصر لدين الله (ت 622هـ) وأحضر كتاب شفاعته إلى السلطان العادل[85].

وكان القاضي الأشرف بهاء الدين محبًّا للعلم وكان الملوك يحفظون فيه مكانة أبيه[86]، لكن صفي الدين لم ينس عداوته لأبيه وشاءت الأقدار أن يموت القاضي الفاضل قبل دخول ابن شكر إلى مصر، وقيل إنه لما سمع بوزارة ابن شكر حَزن وهُمَّ، ودعا الله أن لا يحييه إلى هذه الدولة خشية أن يستدعيه صفي الدين ابن شكر، ويهينه لِما كان بينهما، فقام يبكي ويتضرع إلى الله ويصلي، وكان كثير القيام بالليل. "فمات ولم ينله أحد بضيم"[87]، واتفق خروج جنازته من باب زويلة مع دخول العادل ووزيره من باب النصر[88].

ولكن على الرغم من وفاته فإن كراهية ابن شكر له لم تنقطع، فكان دائمًا يبدي الأسف لأنه لم ينل منه في حياته فكان يقول: "لم يبقَ في قلبي حسرة إلا كون ابن البيساني لم يمرغ شيبته على عتباتي"[89]

---

(84) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، تحقيق إحسان عباس، ط بيروت 1993م، جـ 2، ص 635 إلى ص 640، الصفدي: المصدر السابق جـ 9، ص 14 - 16.

(85) ابن الفرات: المصدر السابق جـ 5 من ص 176، المقريزي: المقفى الكبير جـ 4 ص 596، 597.

(86) أحمد أحمد بدوي: القاضي الفاضل، القاهرة، 1959م، ص 34.

(87) أبو شامة: الروضتين جـ 4، ص ص 482، 483، ابن كثير: المصدر السابق جـ 13، ص ص 24، 25، الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ 21، ص 341.

(88) ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ 8 قسم 2، ص 272، 273، العيني: عقد الجمان: مخطوط جـ 19، ورقة 251، ابن تغري بردي: المصدر السابق، جـ 6، ص 157.

(89) المقريزي: المقفى الكبير، جـ 4، ص 599.

ولهذا درج على سب القاضي الفاضل حتى أمام ابنه ، الذي كان يغض الطرف عن إساءة الوزير ابن شكر لوالده "ولا يَظْهَر منه أي تَغَيُّر ودَارَاه أحسن مُدَارَاة وبذل له أموالاً جمة في السر"[90].

وهناك أسرة القِفطي ، وكان القاضي الأشرف أبو الفضائل الشيباني القفطي قد تولى ولاية بيت المقدس ، فلما دخلت في حوزة الملك العادل ، خاف من وزيره ابن شكر ، فخرج منها ليلاً ونزل بحران[91] ، ودخل في خدمة الظاهر صاحب حلب[92] .

كل ذلك والسلطان العادل لا يعارضه في شيء[93] ، حتى قيل إن ذلك كله كان برضاه وإرادته[94]. فقد استولى عليه الوزير "ظاهرًا وباطنًا" ولم يمَكِّن أحدًا من الاتصال به أو الاقتراب منه حتى الطبيب والحاجب والفراش عليهم عيون له فلا يتكلم أحد منهم بكلمة خوفًا منه[95] .

وكان لابن شكر قول يردده هو وأهله كل يوم عدة مرات "ويعملون به كما يعمل بالأقوال الإلهية" وهو "إذا كنت دقماقًا[96] فلا تكن وتدًا"[97] .

وكان كثيرًا ما ينشد :

إذا وترت امرأً فاحذر عداوته من يزرع الشر لا يحصد به عنبًا

---

(90) الصفدي : المصدر السابق ، جـ 17 ، ص 177 ، الكتبي : المصدر السابق ، جـ 1 ، ص 550 ، الذهبي : تاريخ الإسلام مجلد 13 ، ص 708 .

(91) حران : بتشديد الراء ، مدينة عظيمة على طريق الموصل والشام وهي قصبة ديار مضر ، فتحت أيام عمر بن الخطاب على يد عياض بن غنم ، انظر : معجم البلدان ، جـ 2 ، ص 235 .

(92) إنباه القفطي : إنباه الرواة على أنباه النحاة ، جـ 1 ، ص 10 – 13 ، الصفدي : المصدر السابق ، جـ 29 ، ص ص 34 ، 35 ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ 2 ، ص 107 .

(93) ابن الفرات : المصدر السابق، جـ 5 قسم 1، ص 176، المقريزي: السلوك، جـ1، قسم 1، ص192.

(94) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص 9 .

(95) المقريزي : المقفى الكبير ، جـ 4 ، ص 600 ، الذهبي : تاريخ الإسلام ، مجلد 13 ، ص 707 .
الصفدي : المصدر السابق ، جـ 17 ، ص 176 ، الكتبي : المصدر السابق ، جـ 1 ، ص 549 .

(96) الدقماق : المطرقة ، انظر : المقريزي : المقفى الكبير ، جـ 4 ، ص 600 ، حاشية 1 .

(97) المقريزي : نفسه ، المقريزي : الخطط ، جـ 2 ، ص 372 .

وينشد كذلك :

تَـوَدُّ عــدوي ثـم تزعــمُ أننــي صديقك إن الرأي عنك لعازب[98]

وكثر بطش صفي الدين بالناس حتى أقام لنفسه "حرمـة عظيمـة زادت عـلى حرمـة السلطان وعظم أمره"[99] .

وكان أولاد الملك العادل يأتون إلى داره ويجلسون على بابه حتى يؤذن لهـم بالـدخول فغضب لذلك أمراء الدولة وتكلموا مـع الـسلطان في أمـره "وهـو لا يـسمع فيـه كـلام متكلم"[100].

وكان عند عودته من الشام يخرج للقائه كبار رجـال الدولـة عنـد بلـدة الخـشبى[101] المجـاورة للعباسية ، وحدث أن تخلف الشاعر الضرير موفـق الدين ابن جماعـة المـصري (ت 623هـ) بسبب المرض فكتب له معتذرًا عن عدم حضوره فقال :

قالوا إلى الخشبي سـرنا على عجـل نلقى الوزير جموعًا من ذَوِي الرتب
ولم تَسِـر أيها الأعمـى فقـلت لهـم لم أخشَ من تعـب ألقى ولا نصـب
وإنمـا النـار فـي قلبـي لوحـشتِه فَخِفت أجمع بين النار والخشب[102]

نستطيع أن نلمس مكانة الوزير الصاحب صفي الدين ابن شـكر في دولـة الـسلطان الملك العادل من تقدير الخلافة العباسية له . فكان للوزير نصيب من خِلَعِ الخليفـة التـي كـان يرسـلها إلى الـسطان العـادل وأولاده ، مـثلما حـدث في عـام 604هـ / 1207 –

---

(98) المقريزي : المقفى ، جـ 4 ، ص 601 ، العيني : المصدر السابق ، مخطوط ورقة 243 .
(99) النويري : المصدر السابق جـ 29 ، ص 55 .
(100) نفسه ، ص 56 .
(101) الخشبي : بلدة بينها وبين الفسطاط ثلاث مراحل وهي أولى الجفار من ناحية مـصر وآخرهـا مـن ناحية الشام، انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ 2 ، ص 373 .
(102) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ 5 ص ص 213 ، 214 ، ابـن سـعيد : النجـوم الزاهـرة في حـلى حضرة القاهرة ، تحقيق حسين نصار ، القاهرة ، 2000م ، ص 349 . يدل هذا على شدة الخوف من الوزير .

1208م[103] عندما أرسل الخليفة رسوله الشيخ شهاب الدين أبا عمر بن محمد السُّهْرَوَرْدِي[104] ومعه التشريف والتقليد والخِلَع للخليفة وأولاده الثلاثة وللوزير صاحب ابن شكر . وكانت خِلَعُ الوزير عبارة عن عمامة سوداء وثوب أسود واسع الكم[105] .

وفي هذا يقول ابن سناء الملك :

خِلعَة إثر خِلعَة مثل ما يتـ ـبع في نَظْمِها الفريد
خِلَعٌ كالسحابِ لونًا وكالغيـ ـث انهمالاً به السحابُ يَجودُ[106]

وفي الوقت الذي عمل فيه على الإيقاع برؤساء مصر وأرباب البيوت بها وإذلالهم وسلب ثرواتهم ومحو آثارهم[107] ، نجده يقرب الأراذل وشرار الفقهاء أمثال الجمال المصري[108] الذي جعله قاضي دمشق وابن كسا البلبيسي والمجد البهنسي الذي وزر للأشرف واتخذ من هؤلاء بطانة له فصاروا يوهمونه بأنه "أَكْتَب من القاضي الفاضل بل ومن ابن العميد والصابي وفي الفقه أفضل من مالك وفي الشعر أكمل من المتنبي وأبي تمام ويحلفون على ذلك بالطلاق وأغلظ الأيمان"[109]

---

(103) كان الملك العادل قد أرسل إلى الخليفة بعد فتح أرمينية عام 604هـ / 1207 - 1208م - يطلب التشريف والتقليد بمصر والشام وخلاط وبلاد الجزيرة حتى يضفي على دولته الشرعية ، انظر : المقريزي : السلوك ، جـ 1 ، قسم 1 ، ص 167 ، 168 ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، جـ 6 ، ص 165 ، 166 .

(104) السهروردي : نسبة إلى سهرورد وهو بلد بأرض الجبال جنوبي السلطنة على الطريق بين همذان وزنجان. وهو صوفي شافعي المذهب وكان إمام وقته ، تقدم عند أمير المؤمنين الناصر لدين الله حتى جعله مقدمًا على شيوخ بغداد وأرسله في الرسائل العظيمة ، انظر : السلوك جـ 1 قسم 1 ص 167 ، حاشية 3 .

(105) ابن الفرات : المصدر السابق ، جـ 5 ، قسم 1 ، ص 63 - 65 ، ابن كثير : المصدر السابق ، جـ 13، ص 49 ، المقريزي : المصدر السابق ، ص 167 ، 168 .

(106) ديوانه : ص 83 .

(107) المقريزي : المقفى الكبير ، جـ 4 ، ص 599 .

(108) سيرد ذكره مفصلاً .

(109) الذهبي : تاريخ الإسلام مجلد 13 ، ص 707 ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ 22 ، ص 295 . يلاحظ أن المستبدين لا يستصنعون إلا الأراذل ولا يميلون لغير المتملقين والمنافقين حتى يحصلوا منهم على التأييد والتشجيع فيما يقومون به من استبداد .

الوحشة بين الملك العادل وابن شكر 606 هـ/1209م :

كان ابن شكر يفعل ما يفعل في دولة السلطان العادل دون أن يراجعه أو يعترض عليه، ومع ذلك كان يُكْثِر الإدلال والغضب عليه ويسخط أولاده وخواصه ، فيحتمله العادل ولا يؤاخذه، ويترضاه بشتى الوسائل[110].

وبينما كان السلطان في عام 606 هـ/ 1209م في طريقه من سنجار[111] إلى حران[112]، وقعت بينه وبين وزيره صفي الدين ابن شكر منافرة فغضب ابن شكر على عادته وترك مجلس السلطان بصورة مهينة أخجلت العادل أمام حاضريه وتكلموا في الوزير ، ولكن العادل كان : "من أثبت الناس وأحلمهم وأقلهم بطشًا وصفي الدين بخلاف ذلك"[113]، فسافر في البرية فتبعه الملك المنصور صاحب حماة، والأمير فخر الدين جهاركس صاحب بانياس، "وكان المنصور كثير العناية به وهو أول من مشى إليه من الملوك" فلحقاه في رأس عين وقدما به على الملك العادل[114]، فرضي عنه ، ولكن بقيت هذه الحادثة كامنة في نفس السلطان[115] . "ومن هذه النوبة انحطت منزلته عند السلطان"[116] .

---

(110) الصفدي : المصدر السابق جـ 17 ، ص 176 ، المقريزي : المقفى الكبير ، جـ 4 ، ص 597 .
ذكر النعيمي : من صفات العادل أنه كان "يعرف حق المحبة والصحبة ولا يتغير على أصحابه ولا يضجر منهم وهم عنده في حظوة" انظر : الدارس في تاريخ المدارس ، نشره جعفر الحسيني ، دمشق، 1951م جـ 2 ص 263 ، 264 .

(111) سنجار : مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة ، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام ، انظر : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، جـ 5، ص 147 ، حاشية 4 .

(112) كان الملك الأوحد نجم الدين أيوب قد استغاث بأبيه على الكرج لتهديدهم الأعمال الخلاطية فسافر العادل من دمشق إلى البلاد الشرقية . انظر : ابن الفرات : المصدر السابق ، جـ5 ، قسم 1 ، ص 95 .

(113) النويري : المصدر السابق جـ 29 ، ص 56 .

(114) ابن نظيف الحموي : التاريخ المنصوري ، جـ 1 ، ص ص 59 ، 60 .
المقريزي : المقفى الكبير ، جـ 4، ص 597 ، ابن الفرات : المصدر السابق ، جـ 5 ، قسم 1 ، ص 951، 952، المقريزي : السلوك ، جـ 1 ، قسم 1 ، ص 171 .

(115) النويري : المصدر السابق ، جـ 29 ، ص 56 .

(116) ابن نظيف: المصدر السابق ، جـ1، ص 60، ابن الفرات: المصدر السابق، جـ 5، قسم 1، ص 96.

وكان القاضي الأعز بن شكر ناظر الدواوين في خدمة الملك الكامل فحسده الصاحب ابن شكر ، وخاف على مركزه منه ، وعمل على الإيقاع به ، فأرسل يستدعيه للحضور أمامه ، فخاف القاضي الأعز على نفسه ولجأ إلى الملك الكامل واحتمى به ، فغضب ابن شكر وأرسل إليه ليسلمه القاضي فرفض .

فاجتمع صفي الدين بالعادل وادعى أن القاضي الأعز "لزمه حساب" ، وأن الكامل يحميه، وألح في طلبه فتحدث العادل مع ابنه فقال الملك الكامل : "يُصلح بينهما" وأراد بذلك تهدئة نفس الصاحب من القاضي الأعز ، فلم يزده ذلك إلا حنقا عليه .

ثم إن الكامل اصطحب معه الأعز إلى دار الوزارة ، وأصلح بينهما ، ولكن الصاحب كان يضمر خلاف ما يظهر فأراد أن يقبض على الأعز، بمجرد انصرافه إلى داره ، إلا أنه لزم الخدمة الكاملية بالقلعة ، فازداد غضب الصاحب عليه وتحدث مع العادل أن يعزله عن نظر الدواوين فلم يستجب له ، "فامتنع الصاحب من الكتابة على المناشير والتواقيع" ، وأقسم أن لا يباشر عمله طالما الأعز يكتب معه[117] فتعطلت أحوال الناس واشتكوا إلى السلطان ، فأرسل إليه يرضيه - كعادته - "وهو لا يزداد إلا غضبًا وإساءة في الجواب" حتى غضب السلطان وأمر الكامل أن يسلمه للصاحب ابن شكر ، فلما علم بذلك الأعز ، ذكر للملك الكامل أن ابن شكر كان يريد صرف الكامل عن مصر، وأن يجعل الأشرف موسى بدلاً منه، وأعطاه كتبًا بذلك من ابن شكر تضمنت سبه وشتمه .

فعرض الكامل الكتب على أبيه فقرر على الفور عزله عن الوزارة[118] ، وعين بدلا منه القاضي الأعز مقدام بن شكر[119].

---

(117) النويري : المصدر السابق جـ 29 ، ص ص 56، 57 ، وذكر كل من ابن نظيف الحموي : المصدر السابق جـ 1 ، ص 65، وابن الفرات : المصدر السابق ، جـ5 ، قسم1 ، ص109 ، والمقريزي : السلوك ، جـ 1 ، قسم 1 ، ص 171 ، في حوادث 607 هـ "أن الوزير صفي الدين ابن شكر كفت يده عن العمل".

(118) النويري : نهاية الأرب ، جـ29 ، ص58 .

(119) المقريزي: السلوك، جـ1 ، ص ص 176 ، 177 ، ابن الفرات : المصدر السابق ، جـ5 ، قسم 1 ، ص 177.

أما الصاحب صفي الدين فخرج من مجلس الوزارة ولازم داره[120] ثم خرج بعد ذلك من القاهرة بجميع أمواله وحَرمه وغلمانه فكان ثقله على ثلاثين جملا وزين أعداؤه للسلطان أن يصادر أمواله فرفض ولم يعارضه في شيء[121] .

على الرغم من عزل صفي الدين عن الوزارة في عام 609هـ/ 1212 م ، إلا أنه لم يكن بعيدًا عن شئون الدولة سواء في الشام أو في مصر ، ففي الشام كانت له مجالسه العلمية وأعماله المعمارية ، أما في مصر فقد زين صفي الدين للملك الكامل أخذ اليمن[122] بدلا من أخيه الفائز ، فاستأذن السلطان في فتحها . ثم جهز حملة كبيرة بقيادة ابنه الملك المسعود يوسف استولت على اليمن في 612 هـ/ 1215م وسيق صاحبها معتقلا إلى مصر[123] .

ثم إن السلطان العادل غضب على وزيره الصاحب الأعز من أمور أنكرها عليه[124]، ولهذا قبض عليه في 17 جمادى الآخرة عام 613 هـ/ 1216م وضربه وقيده واعتقله في قلعة بصرى[125]

---

(120) النويري : المصدر السابق ، جـ29 ، ص59 .

(121) المقريزي : المصدر السابق ، جـ1 ، قسم 1 ، ص193، المقريزي : المقفى الكبير ، جـ4 ، ص597 ، ابن الفرات : المصدر السابق ، جـ5 ، قسم 1 ، ص ص 176 ، 177، وذكر ابن العميد أن حمله بلغ مقدار ثمانين جملاً . انظر : أخبار الأيوبيين ، ص ص 9 ، 10 .

(122) كانت بلاد اليمن تحت حكم الملك سليمان شاه ابن سعد الدين شاهنشاه بن تقي الدين عمر بن نجم الدين أيوب ، وقد ملأها ظلمًا وجورًا ، فقرر العادل إرسال حملة بقيادة ابنه الفائز للاستيلاء على اليمن . انظر : أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، القاهرة ، د. ت ، جـ3 ، ص 116 .

(123) العيني : عقد الجمان ، مخطوط ورقة 347، المقريزي : السلوك ، جـ1 ، قسم 1 ، ص181، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، جـ6 ، ص 211 .

(124) لما قرئ على الملك العادل ما أنفقه وزيره القاضي الأعز على حملة الملك المسعود إلى اليمن استكثره وأنكره ، انظر : المقريزي : المصدر السابق ، جـ1 قسم 1 ، ص181، كما أنكر عليه ما أنفقه على قبة الإمام الشافعي من مال الديوان لأنه كان تقرر الصرف عليها من مال الديوان الكاملي. انظر النويري : المصدر السابق ، جـ29 ، ص71.

(125) النويري : نفسه ، المقريزي : المصدر السابق ، جـ1 ، قسم 1 ، ص 181 ، 193.

ولم يستوزر العادل بعده أحدًا ، وإنما ولى القاضي الأشرف أحمد ابن القاضي الفاضل ، شئون الأموال ، وعين القاضي عماد الدين بن جبريل، على ديوان الدولة، وشمس الدين أبا القاسم التبني وزيرًا للصحبة[126].

أما صفي الدين ابن شكر فإنه ظن أن السلطان سيعيده إلى الوزارة « فصار يركب في المواكب ويستعرض للقاء السلطان ثم فتح بابه وصار الناس يدخلون إليه" [127]. وكثر كلامه وظهر منه فساد[128] .

فبلغ الملك الكامل ذلك فمر بدار الصاحب "فوجد الخيل على بابه فقال لمن معه من الأمراء : ما هذا إلا أحمق ! يفتح بابه ويأمر الناس أن يدخلوا إليه ويَمُدُّ السماط والسلطان غير راضٍ عنه" فلما علم بذلك السلطان غضب وقال : "ما يكفي ابن شكر أنه أخذ مالي حتى اطَّرح جانبي يفتح بابه؟"[129].

خشي صفي الدين غضب السلطان فلجأ إلى الملك الكامل وناشده أن يتشفع له عند أبيه ليعيده للوزارة أو يتركه يرحل ، فرفض الكامل أن يتدخل له . "فعاد خجلاً". ومضى إلى دار والدة الملك المعز مجير الدين يعقوب ابن السلطان العادل "وتعلق بذيل ستر الباب"، وصادف وجود السلطان العادل عندها في ذلك الوقت "فعظم ذلك عليه لكونه قصد زوجته"[130]. حتى هم بقتله ثم تراجع[131] .

---

(126) النويري : نهاية الأرب ، جـ29 ، ص72. وزير الصحبة : يكون صاحب هذه الوظيفة وزيرًا متنقلاً يرافق السلطان في أسفاره وحروبه ليقوم بوظيفة الوزير ويصرف الشئون ؛ وذلك ليتسنى للوزير الأصلي أن يقيم بالقاهرة حيث مقر عمله ، انظر : المقريزي : المصدر السابق، جـ1 ، ص627، حاشية 2 .

(127) النويري : المصدر السابق ، جـ 29 ، ص76 .

(128) الصفدي : المصدر السابق ، جـ17 ، ص176 ، الذهبي : تاريخ الإسلام ، مجلد 13 ، ص708 .

(129) النويري : المصدر السابق ، جـ29 ، ص76 .

(130) ذكر ابن تغري بردي في النجوم الزهرة ، جـ6 ، ص167 ، أن العادل كان غيورًا لا يدخل في داره خصي إلا دون البلوغ.

(131) النويري : المصدر السابق ، ص76 .

ولهذا أمر السلطان العادل ، ابنه الكامل ، بمطالبة صفي الدين بمبلغ ستمائة ألف دينار كان اقترضها منه وهو على سنجار ، فأحضره الكامل ووبخه وأمر بمصادرة أملاكه، حتى يوفي المبلغ، وتكلم في حقه - إلى الملك الكامل - جماعة ممن أهانهم ابن شكر وصادرهم من قبل ، فقالوا : إنه ابتدأ حياته قَطَّانًا ، فمن أين له هذا المال . وشهد عليه ابن التبني وقال : "أنا صانعته عن نفسي بمائتي ألف دينار ، وصانعه شهاب الدين الفاضل بثلاثمائة ألف دينار" ، فلما علم العادل بما كان يأخذه من المصانعات أمر بنفيه[132]. فاستأذن السلطان أن يبيع ممتلكاته فأذن له ، فلما تم له ذلك أمره السلطان بالخروج إلى "بلد لا تقام له فيه خطبة" ، فخرج من القاهرة يوم الخميس 25 جمادى الآخرة في عام 613 هـ / 9 أكتوبر 1216م حتى وصل بلبيس وهناك أمر باعتقاله في دار الجاولي وأخذ أموالا منه ، ثم بعد أيام أطلق[133] ، فسار إلى الكسوة[134] ومنها بات ببلدة من الغوطة[135] ثم رحل عنها إلى القصير[136] ثم إلى جهة الفرات عن طريق البرية وخرج إليه جماعة من أعيان البلد سرًّا وجهرًا إلى الكسوة وإلى القصير ولما قطع الفرات لم يمكنه الأشرف من المقام ببلاده فلجأ إلى صاحب حماة فآواه وأحسن إليه، فغضب عليه السلطان وأمره بإبعاده وتولى قاضي العسكر تنفيذ ذلك ، فعاد وقطع الفرات قاصدًا آمد[137] ، فلما

---

(132) نفسه ، ص ص76 ، 77. وقد تبين أن له في كل بلد من بلاد السلطان ضيعة أو أكثر في مصر والشام إلى خلاط وقد بلغ مقدار ما يغله أزيد من مئة وعشرين ألف دينار . انظر : الذهبي : تاريخ الإسلام ، مجلد 13 ، ص708 ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ22 ، ص295 .

(133) أبو شامة : الذيل ، ص115 ، النويري : المصدر السابق ، جـ29 ، ص77 .

(134) الكسوة : قرية هي أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر أنظر ياقوت الحموي ، المصدر السابق جـ4 ، ص 461 .

(135) الغوطة : بالضم ثم السكون ، هي الكورة التي منها دمشق يحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها ولا سيما من شماليها والغوطة كلها أشجار وأنهار متصلة : انظر ياقوت الحموي : المصدر السابق ، جـ 4 ، ص 219 .

(136) القصير : ضيعة أول منزل لمن يريد حمص من دمشق . انظر ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، جـ6، ص165 ، حاشية 3 .

(137) أبو شامة : الذيل ص115. آمد : من أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدرًا ، وهو بلد قديم حصين ودجلة محيطة بأكثره وفيها بساتين . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ1 ، ص66 .

وصلها استقبله صاحبها الملك الصالح ابن ارتق[138] بنفسه وأحسن إليه وبالغ في إكرامه وظل مقيمًا عنده إلى أن مات الملك العادل فعاد إلى مصر[139] .

ولما عزل صفي الدين ابن شكر عن الوزارة دخل الطبيب والوكيل وغيرهما فاتصلوا بالسلطان العادل وحكوا وضحكوا معه ، بعد أن حرَّج ابن شكر عليهم الاتصال به "فأعجب السلطان بذلك وقال ما منعكم أن تفعلوا هذا فيما مضى ؟ قالوا : خوفًا من ابن شكر ، قال : فإذًا قد كنت في حبسٍ وأنا لا أشعر"[140] .

ومما قيل فيه وقد عزل :

أين غلمانك المطيفون بالبغـ ـلة والرافعون فضل الثياب
ردك العزل كالنداء على المـا ء بلا حاجب ولا بواب[141]

رعايته للعلم والعلماء :

وجه الصاحب صفي الدين ابن شكر عناية كبيرة للعلماء والفقهاء والأدباء ، فقد روى عنه الزكي المنذري والشهاب القوصي ، أنه كان "مؤثرًا للعلماء والصالحين كثير البر بهم والتفقد لهم لا يشغله ما هو فيه من كثرة الأشغال عن مجالسهم ومباحثهم"[142].

---

(138) الملك الصالح ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن سقمان بن ارتق صاحب آمد وحصن كيفا ، مات بالقولنج عام 618 هـ ، تولى ابنه الملك المسعود من بعده وهو الذي انتزع منه الملك الكامل آمد وكان الصالح قبيح السيرة . انظر : ابن الوردي : تاريخه ، ط بولاق ، د.ت ، جـ2، ص143 – أبو الفدا : المختصر جـ3 ، ص130 .

(139) الصفدي : المصدر السابق ، جـ17 ، ص176.
الذهبي : تاريخ الإسلام ، مجلد 13 ، ص708 ، الكتبي : المصدر السابق ، جـ1 ، ص 550 .

(140) الذهبي : تاريخ الإسلام ، مجلد 13 ، ص707 .

(141) قاله مظفر الأعمى . انظر : الصفدي : المصدر السابق ، جـ17 ، ص177 . المقريزي : المقفى الكبير ، جـ4 ، ص602 .

(142) المنذري : التكملة ، جـ 3 ، ص ص 157 ، 158 ، الذهبي : تاريخ الإسلام ، مجلد 13 ، ص 706 .
ابن فرحون : المصدر السابق ، ص 143 ، الصفدي : المصدر السابق ، جـ 17 ، ص 176 .

وكان يبالغ في إقامة النواميس مع التواضع للعلماء وكان كثير الصدقات والصلات[143] . فكان يعمر أوقافهم ويثمرها ويوسع لهم في الجامكية[144] .

وعمرت المدارس في عهده وكثرت الأوقاف عليها لشدة عنايته بالعلماء[145] .

ولم تقتصر رعايته للعلماء والفقهاء على مصر وحدها ، فقد أمضى صفي الدين فترة بدمشق ، فأعجبته وطاب له المقام فيها ووصفها في كتابه "البصائر" فقال : دمشق نزهة الأبصار، وعروس الأمصار ، ومجرى الأنهار ومغرس الأشجار ، ومعرس الأسفار ، ومعبد الأبرار المستغفرين بالأسحار ، ظلها الممدود ومقامها المحمود ، وماؤها المسكوب وعيبها المسلوب ، ومحاسنها المجموعة وفضائلها المروية المسموعة ودرجتها المرفوعة وفاكهتها الكثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، ونسيمها العليل ، وهجيرها الأصيل، وماؤها السلسبيل"[146] .

ووصف أهل دمشق بأن "قلوبهم عند ذكر الله حاضرة ونفوسهم بالخير دون الشر آمرة" ، وأشاد الصاحب صفي الدين بعلماء دمشق فكانوا عنده محل احترام وتقدير ، ووصفهم بأنهم "سادة أدباء وعلماء نجباء" ووصف جلساتهم العلمية فقال : "رأيتهم يتناظرون في الفقه مناظرة الوالد مع ولده ويقفون عند كتاب الله فلا يعدلون عن واضح حَدده ويفسرونه عن علم واستبصار ويحتاطون في علمهم بصحيح الأخبار ويتبعون ما وردت به ثقاة الآثار"[147] .

ووصف الصاحب صفي الدين الحركة العلمية التي كانت تعج بها حلقات المسجد الأموي وأروقته فقال : ".... مضيت إلى جامعها الجامع وشفعت بإدراك البصر منه إدراك المسامع فلما وصلت إليه وحللت الحبا لديه رأيت مرأى صغر الرواية ، ورونقًا حصل من الحسن على النهاية ونورًا يجلو الأبصار وجمعًا يفضل على جموع الأبصار وعبادة موصولة على الاستمرار وقرآنا يتلى في آناء الليل وأطراف النهار ومنقطعين إليه قد اتفقوا في الاعتكاف به

---

(143) الذهبي : العبر في خبر من غبر ، جـ5 ، ص 90 ، الذهبي : شذرات الذهب ، جـ 5 ، ص 100 .

(144) العيني : المصدر السابق ، ورقة 381 .

(145) ابن الجوزي : مرآة الزمان ، جـ 8 ، قسم 2 ، ص 677 .

(146) أبو شامة : الروضتين ، جـ 3 ، ص 219 .

(147) أبو شامة : الروضتين ، جـ 2 ، قسم 1 ، ص 193 .

نفائس الأعمار . والبركات تحف بجوانبه والعلوم تنشر في زواياه ومحاربه والأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسند وتروى والمصاحف بين أيدي التالين تنشر ولا تطوى ..... والخلق منقسمون إلى حلق قد نبذ أهلها ما وراءهم من العلق والإسلام فيه فاشٍ والجهل متلاشٍ ..... وهو بيت المتقين وسوق المتصدقين ، ليله للمتهجدين ونهاره للعلماء المجتهدين"[148] .

وكانت تعقد مجالس علمية بحضرة الوزير صفي الدين ابن شكر ، ومنها ذلك المجلس[149] الذي اجتمع فيه التاج الكندي[150] (ت 613هـ/ 1216م) والحافظ أبو الخطاب ابن دحية الكلبي[151] (ت 633 هـ/ 1235م) .

ومن علماء الشام الذين اتصلوا بصفي الدين ابن شكر ، الجمال المصرى[152] فولاه التدريس بالمدرسة الأمينية[153] ثم ولاه وكالة بيت المال بدمشق كما أرسله إلى الملوك والخلفاء نيابة عن صاحب دمشق "وكان معتنيًا بأمره"[154] .

---

(148) نفسه ، جـ2 ، قسم 1 ، ص 194 .

(149) كان ذلك عام 605 هـ عنه، انظر: أبو شامة : الذيل ص65، ابن كثير: المصدر السابق، جـ13، ص51.

(150) التاج الكندي : زيد بن الحسن بن زيد أبو اليمن الكندي ، مهر في النحو ، اتصل في دمشق بالمعظم عيسى ثم سكن حلب مدة ثم عاد إلى دمشق وخدم بها فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب بن شادي واستوزره وكان حسن الخلق ، توفي عام 613 هـ/ 1216 م ، انظر : ابن العديم : المصدر السابق جـ9 ، ص 4012 .

(151) الحافظ ابن دحية أبو خطاب الكلبي : اهتم بالحديث وجال في مدن الأندلس وسمع بمصر والعراق وغيرهما واستقر بمصر وجعله الكامل شيخ دار الحديث بالقاهرة ، ثم غضب عليه وعزله ، توفي 633هـ/ 1235م. انظر: الذهبي: شذرات الذهب ، جـ 5 ، ص ص 160 ، 161 .

(152) الجمال المصري يونس بن بدران بن فيروز جمال الدين المصري ، اختصر كتاب الأم للإمام الشافعي وله كتاب الفرائض ، ولاه المعظم عيسى القضاء بدمشق ، انظر : ابن كثير : المصدر السابق ، جـ 13 ص ص 114 ، 115.

(153) المدرسة الأمينية "تقع بالقرب من الجامع الأموي وقيل إنها أول مدرسة بنيت بدمشق للشافعية ، بناها أمين الدولة أتابك العسكر بدمشق حوالي سنة 530 هـ . انظر : النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، جـ 1 ، ص ص 177 ، 178 .

(154) ابن كثير : المصدر السابق ، جـ 13 ، ص ص 14 ، 15 .

واتصل به أيضًا تقي الدين أبو طاهر الأنماطي (ت 619هـ/ 1222م) وكان مالكي المذهب فقرر له "معلومًا على المصالح" بدمشق[155].

ومن علماء دمشق الذين أشادوا بالصاحب صفي الدين ابن شكر الشيخ الفقيه إسماعيل بن حامد بن عبد الرحمن القوصي[156]. فقد نال منزلة عالية لدى الوزير الصاحب وسيره رسولا عن الملك العادل إلى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين في حلب وإلى سنجار والموصل وخلاط وتولى وكالة بيت المال[157].

ويشيد القوصي بإنعامات الوزير صفي الدين فيقول :"هو الذي كان السبب فيما وليته وأوليته في الدولة الأيوبية من الإنعام وهو الذي أنشاني وأنساني الأوطان ولقد أحسن إلى الفقهاء والعلماء مدة ولايته"[158].

أما علماء الشام من الأطباء الذين اتصلوا بخدمة صفي الدين ابن شكر ، فمنهم الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم بن علي المعروف بالدخوار ، شيخ الأطباء ورئيسهم بدمشق (ت 628هـ) ، وكان دائم الخدمة والتردد على الصاحب صفي الدين ابن شكر "وعرف الصاحب منزلته في صناعة الطب وعلمه وفضله" فقرر له جامكية[159] على الطب ثم إنه رشحه للسلطان العادل برسم خدمة العسكر والتردد إليهم في أمراضهم ،

---

(155) ابن العديم : المصدر السابق ، جـ 4 ، ص 1668 .

(156) القوصي : ولد سنة 574 هـ بقوص وقدم القاهرة ثم رحل إلى دمشق فاستوطنها وسمع الكثير ببلاد متعددة ، وكان أديبًا إخباريًا فصيحًا تقدم عند الملوك ، درس بحلقته بجامع دمشق . توفي عام 653 هـ بدمشق ودفن بداره التي وقفها دار حديث ، انظر : ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية، جـ 2 ، ص 103 ، ابن العديم : المصدر السابق ، جـ 2 ، ص 1632 .

(157) الصفدي : المصدر السابق ، جـ 9 ، ص 65 ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ 23 ، ص 288، 289 ، ترجمة رقم 195 ، ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ، جـ 2 ، ص 103 .

(158) الذهبي : تاريخ الإسلام ، مجلد 13 ، ص 706 .

(159) جامكية : وجمعها جوامك ، الراتب المربوط لشهر أو أكثر ، انظر : سعيد عاشور : العصر المماليكي ، ص411 .

ووصفه له بأنه حكيم فاضل في صناعة الطب ، فأمره باستخدامه[160] . وهناك رضي الدين يوسف بن حيدرة الرحبي (ت 631 هـ) الحكيم البارع بدمشق ، كان مبجلاً عند الملوك عالي الهمة ، اتصل بخدمة الصاحب صفي الدين ابن شكر ، وكان الوزير يلازم أكل الدجاج فشحب لونه ووصف له الأطباء كثيرًا من الأشربة دون فائدة ، فلما شكا إلى الرحبي نصحه بملازمة أكل اللحم الضأن فاستمر على ذلك فترة ، حتى صلح لونه واعتدل مزاجه[161] .

ومن أطباء دمشق الذين اتصلوا بخدمة ابن شكر مهذب الدين يوسف ابن أبي سعيد السامري (ت 624هـ) ، تميز في صناعة الطب واشتهر بحسن العلاج والمداواة ، وكان الصاحب ابن شكر قد عرض له ألم في ظهره بسبب برد أصابه فوصف له الأطباء وصفات لم تفده ، أما السامري فاستبدل ما وصفوه له بدواء آخر انتفع به ابن شكر[162].

اهتمامه بالعمارة :

اهتم صفي الدين بالعمارة في كلٍ من مصر والشام ، ففي مصر أنشأ الصاحب صفي الدين المدرسة الصاحبية أمام بيته في القاهرة[163]. ويقال إن موضع هذه المدرسة قديمًا كان دار يعقوب بن كلس أول وزير للدولة الفاطمية في مصر ، وتقع هذه المدرسة في مكان يعرف بسويقة الصاحب نسبة إليه[164].

---

(160) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، صححه امرؤ القيس بن الطحان ، ط القاهرة ، 1882م، جـ 2 ، ص ص 239 ، 240 .

(161) نفسه ، جـ 2 ، ص ص194 ، 195 ، الصفدي : المصدر السابق ، جـ 29 ، ص 84 ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ 22 ، ص 372 .

(162) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، جـ 2 ، ص ص 233 ، 234 .

(163) ابن فرحون : المصدر السابق ، ص 143 . وقال عنها ابن النبيه المصري :

فكم بنيت من قبلها من مدارس ولكنهم ما أسسوها على التقوى

(164) ابن خلكان : المصدر السابق ، جـ 7 ، ص 30 ، القلقشندي : المصدر السابق ، جـ 3 ، ص 402 . ذكر المقريزي أن هذه السويقة يسلك إليها من خط البندقانيين ومن باب الخوخة وغير ذلك ، عرفت في العصر الفاطمي بسويقة الوزير ابن كلس ، فلما أنشأ الوزير مدرسته الصاحبية عرفت هذه السويقة بسويقة الصاحب نسبة إليه ، انظر : المقريزي : الخطط جـ 2 ، ص 104 .

وقد اختصت هذه المدرسة بالطائفة المالكية[165]. حيث جعلها الوزير وقفًا عليها، وبها درس نحو وخزانة كتب وظلت في يد أولاده بعد وفاته[166].

وبجوار المدرسة أنشأ رباطًا وأوقف عليها المرتبات[167] كذلك أنشأ ابن شكر حمامًا بسويقة الصاحب عرف بحمام الصاحب[168]. وبنى الفسقية التي بوسط جامع الحاكم بأمر الله وأجرى إليها الماء[169].

أما عن اهتمامه بالعمارة في الشام فقد أولى صفي الدين ابن شكر الجامع الأموي عناية فائقة، فقام في شعبان من سنة 602 هـ/ 1206 م بهدم القنطرة الرومانية عند الباب الشرقي ونشر حجارتها ليبلط بها الجامع الأموي وكمل تبليطه في سنة 604 هـ/ 1207 - 1208م[170].

وفي 11 من شوال عام 607 هـ/ 1211 م أعيد تجديد أبوابه - من جهة باب البريد - بالنحاس الأصفر وركبت في أماكنها[171].

ثم أعيد تبليط رواقات الجامع الداخلية في المحرم من عام 611 هـ/ 1214 م وابتدئ بالحجر الشرقية وذلك لأن رخام أرضية المسجد تكسر وصار "حفرًا وجورًا"[172]، وكان ذلك بإشراف الوزير صفي الدين ابن شكر.

---

(165) العمري: المصدر السابق جـ 11 ص 271.

(166) المقريزي: الخطط جـ 2، ص 371. ومن أشهر من درس بها علي بن الأنجب بن المفضل اللخمي المقدسي ت 611هـ، انظر: العمري: مسالك الأبصار، جـ 6، ص ص 197، 199. ابن خلكان: المصدر السابق، جـ 3، ص ص 291، 292.
يوسف بن عبد الله بن علي صفي الدين شكر، ت 632 هـ انظر: الصفدي: المصدر السابق جـ29، ص103، أبو أحمد بن أبي بكر بن مسافر المالكي الشهير بابن زيتون قاضي الجماعة بتونس.
انظر: ابن فرحون: المصدر السابق، ص 99.

(167) ابن فرحون: المصدر السابق، ص 143.

(168) المقريزي: الخطط، جـ 2، ص 81.

(169) نفسه، جـ 2، ص 278.

(170) النعيمي: المصدر السابق، جـ 2، ص 296، ابن كثير: المصدر السابق، جـ 13، ص 14.

(171) العيني: المصدر السابق، جـ 19، ورقة 329، ابن كثير: المصدر السابق، جـ 13، ص 57.

(172) أبو شامة: الذيل، ص 86، المقريزي: السلوك، جـ 1، قسم 1، ص 180.

ولم يقتصر اهتمام الوزير على الجامع الأموي فقد شرع في شوال من عام 607هـ/ 1211م، في عمارة المصلى بظاهر دمشق، وجعل له أبوابًا صونًا له، وجعل في قبلته محرابًا ومنبرًا من حجارة وبنى فوق ذلك قُبة ثم عمل به في عام 613 هـ/ 1216 م رواقين وعمل له منبرًا من خشب، ورتب له خطيبًا وإمامًا راتبين[173]. وكان أول من باشر الخطبة هو الصدر معيد الفلكية، وكل ذلك برعاية الصاحب صفي الدين ابن شكر[174].

وفي نفس الشهر بدئ في إصلاح الفوارة والشاذروان[175] والبركة عند جيرون، وعمل عندها مسجدًا، وعين له صفي الدين إمامًا راتبًا، وهو الشيخ نفيس الدين المصري الملقب ببوق الجامع لقوة صوته[176]. كما عمر ابن شكر جامع حَرَستا وجامع الـمِزَّة بدمشق[177]. وبالجملة فقد أثنى عليه كثير من العلماء "بالبر والإيثار والتفقد للعلماء والصلحاء"[178].

وقد أشاد بعمارته للمساجد في دمشق الشاعر ابن نبيه المصري فقال:

لا تقنطن إذا ما حَالَةٌ عَسُرَت ... وكن بصلاحِها مستوثق الأملِ

كانت بجيرون أوساخ فحين شكت ... أغاثها ربها بالصاحب ابن علي[179]

---

(173) راتبان: دائمان.

(174) ابن كثير: المصدر السابق، جـ 13، ص 57، النويري: نهاية الأرب، جـ 29، ص 52.
الدمشقي: المصدر السابق، جـ 2، ص 323.

(175) الشاذروان: حوض ينساب إليه الماء من صنبور ويقام لتزيين الحدائق والقصور وفي المساجد للوضوء، انظر: أحمد عيسى، معجم مصطلحات الفن الإسلامي، اسطنبول، 1988، ص 65.

(176) النويري: المصدر السابق، جـ 29، ص ص 52، 53.
الدمشقي: المصدر السابق، جـ 2، ص 323.

(177) الصفدي: المصدر السابق، جـ 17، ص 176، الدمشقي: المصدر السابق، جـ 2، ص 337.
العيني: المصدر السابق، جـ 20، ورقة 22.

(178) الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ 22، ص 294.
بينما يلوم ابن جبير على صفي الدين ابن شكر عنايته بمصر والشام وأخذه المكوس من الناس في الحجاز فقال في الشكوى منه:

وما نال الحجاز بكم صلاحًا ... ولكن نالته مصر والشام

انظر: الرحلة، ليدن: 1907، ص 14.

(179) ديوانه، ص 426.

وزارة ابن شكر الثانية : 615 – 622 هـ / 1218 ـ 1225م :

تولى الكامل سلطنة مصر - بعد وفاة الملك العادل - في ظروف حرجة . فقد كان يواجه الحملة الصليبية الخامسة[180] على دمياط ، وأمام المشكلات التي واجهته[181] كتب إلى صفي الدين ابن شكر يستدعيه إلى مصر[182].

خرج ابن شكر من آمد فقدم دمشق في عام 615هـ/ 1218م[183] "ونزل بظاهرها ببيت دانس في دار المؤيد العقرباني" فأقام بها أيامًا ثم توجه إلى مصر ، وأثناء إقامته ببيت دانس قرأ بهاء الدين ابن أبي اليسر بين يديه مَقامة جليلة في مدحه من إنشاء الشيخ أبي الحسن البخاري سماها "محاورة الفقهاء ومحاضرة العلماء في أوحد الكبراء وسيد الوزراء"[184] .

تلقى الملك الكامل صفي الدين ابن شكر بالترحيب والإكرام فقد خرج إلى لقائه بنفسه بالمنزلة العادلية[185] . وشرح الكامل لابن شكر ما أهمه من محاربة الفرنج وتآمر

---

(180) حملة حنا دي برين على دمياط عام 615هـ/ 1218م . عن هذه الحملة انظر : د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ط 3 ، القاهرة ، 1976م ، جـ 2 ، ص923 - 941 .

(181) واجه الملك الكامل مؤامرة دبرها الأمير الكردي عماد الدين بن المشطوب لخلعه واستبداله بأخيه الأصغر "الفائز" حتى يتسنى له - معه - السيطرة على الحكم لصغر سنه وقد عمل ابن المشطوب على استمالة أمراء الملك الكامل إلى أخيه الفائز . كما واجه الملك الكامل أيضًا تمرد العربان وإغارتهم على القرى ونهبها، انظر: ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، جـ 6، ص ص 230 ، 231.

(182) المقريزي : المقفى الكبير ، جـ 4 ، صـ 597 ، وذكر أن الضرورة هي التي دفعت الكامل إلى ذلك بعدما كان يعاديه في أيام أبيه ، انظر : نفسه ص 598 .

(183) اختلف في عام قدومه من المشرق فقيل 615 هـ ، وقيل كان بعد عام 615 هـ ، انظر : أبو شامة : الذيل، ص114 ، وذكره البعض في عام 617 هـ ، انظر: ابن العميد: المصدر السابق، ص 11 ، 12.

(184) أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص 114 ، ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ 8 قسم 2 ص 598 .

(185) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص 11 ، المقريزي : المقفى جـ 4 ، ص 598 .

المنزلة العادلية : العادلية من القرى القديمة أسسها الملك العادل أبو بكر بن أيوب عام 614 هـ ليتخذها قاعدة يواجه منها الفرنج عندما نزلوا دمياط في هذه السنة ، وهي في التقسيم الإداري الحالي تابعة لمحافظة دمياط ، انظر : الخطط ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، ط لندن ، 2002م ، جـ 1 ، ص ص 586 ، 587 ، حاشية 3 .

الأمير عماد الدين أحمد بن المشطوب[186] عليه فضلا عن ثورات العربان "فثبته وقوى قلبه" . ثم فوض إليه السلطان الكامل الوزارة في ذي القعدة من نفس العام[187] ، فتكفل له الوزير بتحصيل الأموال وتدبير الأمور[188] .

بدأ الصاحب صفي الدين في مصادرة أرباب الأموال من الكتاب والتجار والأكابر وقرر على الأملاك أموالاً[189] ، وأخذ من الناس إيجار شهرين على أملاكهم[190] ، وقرر التبرع على الأملاك وهو مال جُبي من الناس[191] ، وفرض الضرائب على دواب الركوب والحمل "والصوانع والمغاني ومعلمي المكاتب وغيرهم"[192] وقبض جوالي أهل الذمة لسنة قادمة قبل أن يأتي موعدها[193] . وشدد ابن شكر العقوبات على جماعة من الكتاب مسلمين ونصارى ويهود وطالبهم بالأموال وامتلأت الحبوس بهم حتى تلفت أعضاء بعضم من شدة العقوبة .

وبَطُل العمل بالوكالات والفنادق ورسم أن لا يباع شيء إلا بدار وكالة السلطان التي بدار الملك وتكون السمسرة للسلطان[194] .

وأتت هذه الإجراءات بالثمرة المرجوة منها ، وجمع الوزير أموالاً جمة أرسلها إلى السلطان[195] .

---

(186) عماد الدين أحمد بن المشطوب : الأمير عماد الدين أحمد بن المشطوب كان من أجلّ الأمراء الأكابر عرف بعلو الهمة والحرمة الوافرة ، لما مات أبوه أقطعه السلطان صلاح الدين ثلثي نابلس وكانت أقطاعًا لأبيه ، انظر : المقريزي: السلوك ، جـ ، قسم 1 ، ص196 .

(187) المقريزي : المقفى ، جـ 4 ، ص 598 .

(188) ابن العميد : المصدر السابق ، ص 11 ، المقريزي : السلوك ، جـ 1 ، قسم 1 ، ص 196 .

(189) المقريزي : المقفى جـ 4 ، ص 598 ، النويري : المصدر السابق ، جـ 29 ، ص 92 .

(190) الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر ، جـ 7 ، الدر المطلوب في ملوك بني أيوب ، تحقيق : سعيد عاشور ، القاهرة ، 1972 ، ص 207. ابن المقفع جـ 4 قسم 1 ص 153 ، 154 ، 182 .

(191) المقريزي : السلوك جـ 1 قسم 1 ص 205 ، العيني : المصدر السابق ، ورقة 380 .

(192) النويري : المصدر السابق جـ 29 ، ص 92 .

(193) ابن المقفع : المصدر السابق ، جـ 4 ، قسم 1 ، ص 155 .

(194) نفسه ، ص 181 – 183 .

(195) المقريزي : السلوك ، جـ 1 ، قسم 1 ، ص 205 ، المقريزي : المقفى ، جـ 4 ، ص 598 .

واستشار السلطان وزيره في الأمراء الذين ساندوا ابن المشطوب "فاتفق الرأي على نفي الأمراء المذكورين من البلاد"[196] .

وتولى الوزير الصاحب مهمة تبادل الأسرى مع الفرنج في سنة 618 هـ / 1221م فدخل في البحر وأطلق من كان بمصر من أسرى الفرنج بينما أطلق الفرنج أسرى المسلمين من بلادهم[197] .

وتمكن ابن شكر من السلطان الملك الكامل وعظمت مكانته حتى أن السلطان كان ينزل من قلعة الجبل ويجلس معه بمنظرته على الخليج ليشاوره في مهمات الدولة[198] .

وبعث السلطان الكامل ابنيه إلى داره ليزوراه في يوم العيد "فقاما على رأسه وهو جالس" فأنشده الزكي القوصي :

لو لم تقم في الله حق قيامه ما كنت تقعد والملوك قيام[199]

وملأت مهابة صفي الدين في وزارته الثانية الصدور "وانقاد له على الرغم والرضا الجمهور"[200] .

واتسمت وزارة صفي الدين الثانية بالقسوة والعنف رغم ما مر به من أحداث ، كانت كافية لتغييره ، منها موت أخيه ، ووفاة أولاده ، وضعف بصره[201] ، إلا أنه أظهر جلدًا عظيمًا فكان لا يستكين للنوائب ولا يخضع للنكبات[202] .

---

(196) ابن العميد : المصدر السابق ، ص 12 ، المقريزي : السلوك ، جـ 1 ، قسم 1 ، ص 212 .

(197) المقريزي : نفسه ، جـ 1 ، ص 209 .

(198) المقريزي : المقفى ، جـ 4 ، ص 598 ، السلوك ، جـ 1 ، قسم 1 ، ص 212 . ابن العميد : المصدر السابق ، ص 12 .

عبر صاحب تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية عن زيادة تمكنه في دولة الكامل فقال : "كان الأمر كله في يديه" وفي موضع آخر ذكر أن الصاحب ابن شكر كان هو الحاكم "في الأمور مستقلاً" . انظر ص 223 ، 224 .

(199) المقريزي : الخطط ، جـ 2 ، ص 272 .

(200) المقريزي : المقفى ، جـ 4 ، ص 598 .

(201) الصفدي : المصدر السابق ، جـ 17 ، ص 176 .

(202) الذهبي : تاريخ الإسلام ، مجلد 13 ، ص 708 .

وقطع في وزارته الأرزاق وكانت جملتها أربعمائة ألف دينار في السنة[203] . وأوقع بكبار المصريين وأرباب البيوت حتى استأصلهم "وأذل عزيزهم وأفقر غنيهم ومحا آثارهم"[204] .

وتسارع إلى بابه أصحاب الحاجات والمطامع وكل من خشي بطشه فكانوا يقفون ببابه وتمتلئ بهم الطرقات فلا يعبأ بهم الوزير بل كان يهينهم "ولا يحفل بشيخ منهم ولا عالم"[205] .

وباشر الوزارة بسطوة وجبروت وكان قويًا على نفسه فقد عرض له إسهال (دوسنطاريا) وتمكن المرض منه ، حتى يئس الأطباء من شفائه وأشرف على الموت ، وعندئذ استدعى عشرة من وجوه الكتاب – كانوا في حبسه – وقال لهم : "أنتم في راحة وأنا في الألم كلا والله لا يكون ذلك!" ، وأمر بهم فعُصِروا[206] ونوع عليهم العذاب فصاروا يصرخون طول الليل من شدة العقوبة بينما هو يصرخ مما به من مرض حتى الصباح ، فلم يمضِ غير ثلاثة أيام حتى زال ما به من مرض وعاد أقوى مما كان[207] .

---

(203) المقريزي : الخطط ، جـ 2 ، قسم 1 ، ص 273 .

(204) المقريزي : المقفى ، جـ 4 ص 599 ، المقريزي : السلوك جـ 1 قسم 1 ، ص 219 .

(205) المقريزي : الخطط ، جـ 2 ، ص 372 ، المقريزي : المقفى ، جـ 4 ، ص 599 .
يقول عنه أبو شامة إنه "كان خليقًا بالوزارة لم يأت بعده فيها مثله وكان متواضعًا يحب الفقراء يسلم على الناس الذين يمر بهم وهو راكب ويكرم الفقهاء ويحترمهم" ، انظر : ذيل الروضتين ص115 ، ابن كثير : المصدر السابق جـ 13 ص 81 . ولا نلمس مما سبق أنه كان متواضعًا ، وما ذكره أبو شامة غير دقيق وينافي الحقيقة.

(206) عقوبة العصر : من وسائل التعذيب وتكون بآلة تسمى المعصرة ، وهي تتكون من خشبتين مربوطتين ببعضهما يوضع بينهما وجه المعاقب أو رأسه أو رجلاه أو عقباه ثم تشد الخشبتان شدًا وثيقًا حتى يؤدي ذلك – في كثير من الأحيان – إلى كسر العظم المعصور بين الخشبتين. انظر : السلوك ، جـ 1 ، ص 740 ، حاشية 3 .

(207) الصفدي : المصدر السابق ، جـ 17 ، ص 177 . المقريزي : المقفى ، جـ 4 ، ص 599 ، المقريزي : الخطط ، جـ 2 ، ص 373 .
هكذا يستمد ابن شكر قوته من تعذيب أعدائه بلا جريرة سوى أنه لا يريد أن يتألم وحده وهو ما يعكس قبح شخصيته.

وأصيب بحمى قوية فصار يرتعد وهو جالس في مجلس السلطان ينفذ الأشغال ولم يتأثر "ولا ألقى جنبه إلى الأرض" واستمر في عمله[208].

وفي مرضه بالحمى كتب له ابن النبيه المصري فقال :

تبا لِحُمّاكَ التي كَسَتْ فُؤادي وَلَهَا
هل سَأَلتْكَ حاجةً فَأَنْتَ تَهتَزُّ لَهَا[209]

فكانت جائزة هذين البيتين استخدامه على ديوان أوقاف الجامع المعمور بدمشق بجراية وافرة[210].

وزادت هيبة ابن شكر ، حتى كان رؤساء الناس يقفون على بابه من نصف الليل إلى الصبح ومعهم المشاعل والشموع ، فإذا جاء الصبح خرج ابن شكر وتعمد ألا يراهم ولا يرونه لأنه كان إما أن يرفع رأسه إلى السماء وإما إن يعرج إلى طريق غير طريقهم التي هم بها ، أو أن يأمر جنداريته[211] بضرب الناس وطردهم من طريقه غير مكترث بمكانة من يقفون على بابه[212] ، وكان بعضهم يضطر إلى معاودة الوقوف مرة أخرى "خوفًا من الهلاك وسلب المال واستئصال الأهل والأولاد"[213].

وغضب الشاعر شرف الدين ابن عنين من سوء معاملة ابن شكر للناس فقال :

ضاع شعري وقل في الناس قدري من وقوفي بباب اللئيم ابن شكر

---

(208) الذهبي : تاريخ الإسلام ، مجلد 13 ، ص 708 ، المقريزي : المقفى ، ص 601 . الصفدي : المصدر السابق ، جـ 17 ، ص 176 . الكتبي : المصدر السابق ، جـ 1 ، ص 550 .

(209) ديوانه ص 418 .

(210) الصفدي : المصدر السابق جـ 1 ، صـ 286 ، قال عنه المقريزي : كان "إذا لحظ إنسانًا لا يقنع له إلا بكثرة الغنى ونهاية الرفعة" انظر : المقفى الكبير جـ 4 ، ص 601 .

(211) الجندارية : جمع جندار وهو حارس السلطان : انظر : المقريزي: المقفى، جـ 4 ، ص 601 حاشية 4.

(212) الذهبي : تاريخ الإسلام ، مجلد 13 ، ص 708 .

(213) المقريزي : المقفى الكبير ، جـ 4 ، ص 601 ، المقريزي : الخطط ، جـ 2 ، ص 373 .

وقال فيه أيضًا :

ونعمةٍ جـــاءَتْ إلى سِـــفلةٍ أَبطـرَهُ الإثـــــراءُ لَمَّـــا ثَرا
فالنـــاسُ مِن بغـــضٍ لهُ كلمـا مـــرَّ عليهم لعـــنوا شـــاورا
تبـــا لمـصـــر ولهـــا دولـــةً ما رفعت في الناسِ إلا خرا[214]

أما أبو الفضل جعفر بن شمس الخلافة (الملقب بمجد الملك) فتمنى أن يأتي اليوم الذي تنطلق فيه الألسنة في ابن شكر بلا خوف ، وقد عبر عن ذلك بقوله :

مدحتـــك ألســـنة الأنـــام مخـــافـة وتشاهـــدت لك بالثناء الأحســـن
أتَـــرى الزمـــان مؤخـرًا في مدتـــي حتى أعيش إلى انطلاق الألسن[215]

وكان للوزير ابن شكر بواب اسمه سالم استغل عمله لدى الوزير وأخذ من الناس أموالاً كثيرة ليصرف لهم أمورهم لدى الوزير ، ومع ذلك كان يهينهم إهانة بالغة وكان عليه للصاحب في كل يوم خمسة دنانير "ديناران برسم الفقاع وثلاثة دنانير برسم الحلوى فضلا عن كسوة غلمانه ونفقاته" وقد جمع هذا الرجل ثروة كبيرة حتى أنه اقتنى عقارًا وضياعًا وأملاكًا[216] .

ومن رجال الدولة الذين تعرضوا لإيذاء ابن شكر في وزارته الثانية الأشرف حمزة بن علي بن عثمان المخزومي من كتاب الدواوين[217] ، فلقد خشي منه الوزير ابن شكر على وزارته فناصبه العداوة وأهانه وآذاه ففر منه إلى حلب حيث أكرمه الظاهر غازي "ورتب له معلومًا" .

---

(214) ديوانه ، ص 241 .

(215) ابن خلكان : المصدر السابق ، جـ 1 ، ص 362 ، الصفدي : الوافي بالوفيات ، ص 177 .

(216) المقريزي : الخطط ، جـ 2 ، ص 373 ، المقريزي : المقفى الكبير ، جـ 4 ، ص 602 . الذهبي : تاريخ الإسلام ، مجلد 13 ، ص 708 .

(217) لبني عثمان شهرة في كتابة الدواوين السلطانية ، تولى حمزة الديوان أيام صلاح الدين وكان كاتبًا سديدًا بليغًا، انظر: الصفدي: المصدر السابق، جـ 13، ص 110، ابن سعيد: النجوم الزاهرة، ص291.

ثم عاد بعد ذلك إلى مصر في وزارته الثانية فأكرمه ابن شكر "وزال ما كان في نفسه منه" ثم إنه حضر مجلسًا للوزير صفي الدين فوقع نزاع وكلام فصاح عليه ابن شكر فمات فجأة في ذي الحجة عام 615هـ / 1219م وأشهد الوزير جماعة من الناس على موته خوفًا من أن ينسب إليه أنه تسبب في ذلك[218] .

وهناك الحسن بن أحمد بن أبي الحسن الديباجي الكاتب[219] ، وكان الملك الكامل يعتمد عليه في مهمات الأمور لسداد رأيه وعقله ونباهته فحسده الوزير ابن شكر على مكانته ودس له من سقاه السم فمات بدمشق عام 617 هـ / 1220م[220].

ابن شكر في كتابات شعراء عصره :

كان صفي الدين ابن شكر مجزلا في جوائز الشعراء[221]، ولهذا أقبل عليه شعراء عصره ونظموا القصائد البديعة في مدحه ، من هؤلاء ابن الساعاتي ، وابن سناء الملك ، وابن النبيه المصري ، وابن عنين وغيرهم.

وقد صوره هؤلاء الشعراء عظيمًا في دينه :

قال ابن سناء الملك :

وافاكَ شهرُ الصومِ يا أوفَى الوَرى أجرًا بأَيمنِ طائرٍ وبأَسْعَدِ

---

(218) ابن العديم : بغية الطلب جـ 6 ص 2948 – ص2951 ، ابن سعيد : النجوم الزاهرة ص 291 وذكر أن وفاته عام 616 هـ ، الصفدي : المصدر السابق جـ 13 ص 110 .

كرر ابن شكر معه ما فعله مع ابن نماتي فأظهر له غير ما يبطن حتى إذا أمن له أظهر له العداء ولهذا لا نشك في أن ابن شكر كان وراء موته.

(219) اشتغل بالأدب والكتابة والشعر وكتب في ديوان الإنشاء للملك الكامل الأيوبي وحظي عنده واعتمد عليه في أمر دولته وكان ذا رأي ونباهة ، وتوجه رسولاً إلى الشرق . مات بدمشق عام 617هـ ، انظر : ابن العديم : المصدر السابق ، جـ 5 ، ص 2289 .

(220) نفسه جـ 5 ، ص 2288 ، 2289 .

(221) العمري : المصدر السابق ، جـ 11 ، ص 306 .

وافاكَ مُشتاقًا لما عَوَّدْتَهُ ... من قُربةٍ وتلاوةٍ وتهجُّدِ

ما زلتَ فيه وفي سِواه صَابِيًا ... لله من لَهْوٍ يشين ومَوْرِدِ[222]

وقال ابن النبيه المصري :

هو الإمام الذي لولا هدايته ... تحير الناس في قول وفي عمل[223]

وقال ابن عنين :

فما رأينا إمامًا قبل رؤيته ... يرى القوافل فرضًا فِعْلُها يَجِبُ[224]

يدبر الدولة بسديد رأيه :

قال ابن سناء الملك :

الوزير الذي به نهض المل ... ـك وحطت عن ظهره أوزاره

وبآرائه احتمت فهو إما ... سور عوذته أو أسواره[225]

وقال :

شُدَّت عُرى الملك بآرائه ... وزيد منه قوةً في قُواه

وقال ابن عنين :

فاستقرتْ قواعدُ المُلكِ وازدا ... دت به سُدَّةُ الوزارة مجدَا

وغدا رأيُهُ أحَدَّ سلاح ... في لقاءِ العدى وأنصر جُندَا[226]

قوة بأسه وعظيم سطوته:

قال ابن سناء الملك :

أنت الذي قهر المما ... لك كلها بأسًا وحزمًا[227]

---

(222) ديوانه ص 79 .

(223) ديوانه ص 426 .

(224) ديوانه ص 47 .

(225) ديوانه ص 170 .

(226) ديوانه ص 51 .

(227) ديوانه ص 301 .

وقال ابن النبيه :

قل لرائيه قل أعـوذ برب النـ ـاس هذا الوزير رب الناس[228]

جوده وكرمه :

قال ابن سناء الملك :

أكرم الخـلق لا يرى أنـدى من يمين الغمـام إلا يساره[229]

وقال ابن النبيه :

بلدة حلهـا الوزير فمرعـا ها خصيب والناس في أعراس[230]

وقال ابن عنين :

له أياد مُقيمـاتٌ مسـافرةٌ لم يخلُ من بِرها عُجمٌ ولا عربُ[231]

وقال شرف الدين بن أرسلان :

صفي بصفـي الدين كل مكـدر من العيش والأيام ضاحكة زهر[232]

ولهذا إذا سافر يشتاق إليه :

قال ابن سناء الملك :

أشكو إليك الشـوق فهـو الذي لنـاره بين ضـلوعي وقيد[233]

وقال ابن النبيه :

ولي عـهـد البـدر إن غـاب فـإني منتـظر[234]

---

(228) ديوانه ص 404 .

(229) ديوانه ص 171 .

(230) ديوانه ص 406 .

(231) ديوانه ص 46 .

(232) الصفدي : المصدر السابق ، جـ 13 ، ص 295 .

(233) ديوانه ، ص 67.

(234) ديوانه ، ص 423.

وقال العماد بن السلماسي :

سقى الله ساعات أخذنا اجتماعنا بهـا من يد الأيام أخـذ سـارق

وحـي ديارًا إن تَزُرهـا تجد بهـا طبيبًا لأسـقام وطيبًا لعاشق[235]

وقال ابن الساعاتي :

لذعتني نار الفراق ونـار الـ ـحب والبين ما لهـا من خمـود[236]

وقال:

وقل لـه إن الفراق موقـف لولا صفي الدين ما شاق وشق[237]

وليس له نظير في عظمته ومجده :

قال ابن سناء الملك :

مجلـس عبـد الله ذاك الذي ترى ملوك الأرض فيه عبيد[238]

وقال :

جـاورته المـلوكُ تلتمسُ العـزَّ لَـمَّـا رَأَوْه قَـد عـزَّ جَـارُه[239]

وقال :

إذا ما ادعى الأقوام مجـدًا فمجده ورائتـه عن سيد بعد سيد[240]

وقال ابن النبيه :

هَيبَةٌ تَملأُ القُلُـوبَ وَشَخْصٌ تَمْثِلي مِنْـهُ أَعْيُنُ الجُلاسِ[241]

وقال ابن عنين :

دعيـت في الـدولـة الغـراء صاحبهـا حـقًّا وظـن جهـولٌ أنـه لقـب

---

(235) ابن سعيد : النجوم الزاهرة ، ص 294.

(236) ، (237) ديوان ابن الساعاتي ، ص 245 ، 244.

(238) ديوانه ، ص 65.

(239) ، (240) ديوانه ، ص 170 ، 82.

(241) ديوانه ص 407 .

ألبستها مجدكَ الضافي فبات لها ذيل على منكب الجوزاء ينسحب[242]

وقال شرف الدين ابن أرسلان :

علوت فأصحاب العمائم كلهم نجوم وأنت الشمس والقمر والبدر[243]

منصور على أعدائه :

قال ابن سناء الملك :

ومظفر العزماتِ منْصورٌ على الأعداء مقدامُ الجَنانِ مؤيَّدِ[244]

وقال :

فالمعادِي لـه يُهان ويَهوي وعلى وجهِه يكبُّ ويكْبُو[245]

وقال ابن عنين :

لَيِّنُ العِطف للمَوالي ويلْقى منهُ أهلُ العِنادِ خصمًا ألدَّا
فهو مثلُ الحُسامِ في حالتيه لَيِّنٌ صفحةً وقاسٍ حَدًّا[246]

وفاته عام 622 هـ / 1225م :

ولم يزل ابن شكر على عليائه وارتفاع مكانته، وكان قد كف بصره "فأظهر جلدًا عظيمًا وعدم استكانة"[247].

---

(242) ديوانه ص 48 .

(243) الصفدي : المصدر السابق ، جـ 13 ، ص 295 ، النعيمي : المصدر السابق ، جـ 1 ، ص 620 .

(244) ، (245) ديوانه ، ص 79 ، 42 .

(246) ديوانه ص51 .

(247) المقريزي : المقفى ، جـ 4 ، ص 600 . وصفه العمري بأنه أقوى من الصخرة وأشد من الحديد وأن قلبه حديد وبأسه من بؤسه شديد ، انظر : المصدر السابق، جـ 11 ، ص 305 .

فكان يحضر مجالس السلطان ويباشر الديوان "بحيث لم يظهر عليه العمى"[248]. وإذا حضر إليه الأمراء والأعيان وجلسوا على خِوَانه[249] يقول : "قدموا اللون الفلاني للأمير فلان واللون الفلاني للصدر فلان ولون كذا للقاضي فلان ويبني أموره في معرفة مكان المشار إليه برموز ومقدمات ..... فيمشي هذا منه على الناس ولا يفطن بعماه"[250].

إلا أن بعضهم نبه السلطان لعماه وتجلده حبًّا لدوام الرئاسة فاندهش الملك الكامل لأنه لم يتغير من حاله شيء فطلبوا منه أن يختبره ليتحقق من عماه ، فغير السلطان مقعده الذي اعتاد أن يجلس به ثم طلبه ، فأتى على عادته وجلس في مكانه الذي كان يجلس فيه بين يدي السلطان فقال له السلطان : "ما أنا هناك قم إلى فقام لا يعرف كيف يمشي حتى أخذ بيده من حضر" ثم طلب منه السلطان أن يكتب له بعض الأشياء وكانت مطولة فلم يستطع فتحقق السلطان مما قيل عنه وسأله : "ما حملك على ما صابرت نفسك عليه ؟ فقال : حُبًّا لقرب السلطان"[251].

ظل ابن شكر على هيبته ومكانته حتى مات يوم الجمعة 8 شعبان عام 622هـ / 1225م ودفن برباطه الذي أنشأه بالقاهرة بالقرب من مدرسته[252]، وكانت جنازته عظيمة شهدها كل من حضر من المدينتين القاهرة ومصر ، وسير السلطان أولاده وأقاربه ليصلوا عليه .

وبعد وفاته بعام قبض السلطان الملك الكامل على أولاد الصاحب وغلمانه وعاقبهم بالتعذيب والعصر وطالبهم بالأموال[253] ، واعتقل تاج الدين وعز الدين ولديه في قاعة

---

(248) العمري : نفسه ، ص 306 .

(249) خوانه : الخوان ما يؤكل عليه والجمع أخونة ، انظر : المعجم الوجيز ، ص 215 .

(250) المقريزي : المصدر السابق ، جـ 4 ، ص 600 .

(251) العمري : المصدر السابق ، ص ص 306 ، 307 .

(252) ابن المقفع : المصدر السابق ، ص 231 .

(253) نفسه ، ص ص 233، 234 .

سهم الدين بدرب الأسواني بالقاهرة[254] ، حتى اضطروا إلى أن يبيعوا أملاكهم ويوردوها للسلطان[255] ، واستخرج منهم الكامل : "ما كان أكله أبوهم ... ووجدوا بعض ما عملوا"[256].

وقد كتب زكي الدين القوصي قصيدة في الصاحب تاج الدين يوسف ابن الصاحب صفي الدين لما نكب بعد موت أبيه جاء فيها :

أسفي وهل يُجدي عليك تأسفي حكم الزمان عليك حكم تعسفي

وقال :

فلأجرين على ربوعك أدمعي ولأضرمنَّ عليك نار تلهفي
فأنا الوفي لدى زمان غادر لا ذاق برد أمانة من لا يفي
شاركت يوسف في اسمه وبلائه ستنال بعد السجن رتبة يوسف[257]

وفي نفس العام بعث الخليفة الظاهر بالله العباسي الخلع والتقليد إلى السلطان الكامل وأولاده وخلعة للوزير صفي الدين ابن شكر ، فأمر السلطان أن يلبسها القاضي فخر الدين سليمان بن محمود الدمشقي كاتب الإنشاء[258].

ثم أنعم السلطان في عام 626 هـ/ 1229م بجميع أملاك ورباع وحمام صفي الدين ابن شكر إلى الأمير عز الدين أيدمر المعظمي[259].

هكذا انتهت حياة هذا الوزير الذي ولي فملأ الأرض جورًا وظلمًا ، ومارس الاستبداد والقسوة على الرعية ، فقتل ونفى وعاقب وصادر ، حسب ما أملاه عليه هواه.

---

(254) ابن العميد : المصدر السابق ، ص 13 .
(255) ابن المقفع : المصدر السابق ، ص 236 ، المقريزي : السلوك جـ1 ، ص 220 .
(256) ابن نظيف الحموي : المصدر السابق ، جـ 1 ، ص 114 .
(257) الصفدي : المصدر السابق ، جـ 18 ، ص ص 184 ، 185 .
(258) ابن العميد : المصدر السابق ، ص ص 13 ، 14 ، المقريزي : السلوك جـ1 ، ص ص 219 ، 220 . يدل ذلك على استمرار مكانته في بلاط الخلافة العباسية.
(259) ابن العميد : المصدر السابق ، ص 16 ، المقريزي : المصدر السابق ، ص 243 .

وعلى الرغم من نشأته الصالحة وتفقهه في الدين وتحصيله للعلم ، إلا أنه "لم يسمع بوزير من المتعممين (الفقهاء والعلماء) كان أظلم منه"[260].

وما جُعل الولاة ليذلوا الناس أو يأخذوا أموالهم غصبًا ولكن ليسوسوهم بالعدل وبما أنزل الله[261].

ولا نستطيع أن نفهم الظروف التي مكنت هذا الوزير من الاقتراب من السلطان إلى حد السيطرة عليه ، حتى صار يتصرف في دولته من تلقاء نفسه ، دون محاسبة ، ولا نجد إلا براعته في الحصول على الأموال من الرعية ، وتدبيرها للسلطان متى احتاج إليها دون النظر إلى الوسائل البشعة التي انتهجها الوزير لابتزاز رعيته .

لقد لقي ابن شكر نفس الجزاء فصادره السلطان بعد وفاته وعاقب أولاده ونسي له كل ما فعله من أجل توفير الأموال لخزانته ، فما فعله مع الناس عاقبه الله به ، قال تعالى :

﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[262].

(260) النويري : المصدر السابق جـ 29 ، ص 130 .

(261) إبراهيم الإبياري : قيام دولة ، القاهرة 1977 م ، ص 63 .

(262) سورة إبراهيم : الآية 51 .

ملحـــق رقـــم (1)

كتاب من الصاحب صفي الدين ابن شكر إلى الملك المنصور صاحب حماة أثناء حصاره لقلعة بعرين سنة 599 هـ

كن كيـــف شـئت من العـباد فأنـت من قلـــبي قريـــب

عرض المملوك كتاب المولى على السلطان – خلـد الله ملكـه – وقـد كتـب إلى الملـك الظاهر والملك الأمجد والملك المجاهد – عز نصرهم – بتسيير عـساكرهم إليـه وورودهـا عليه وإعانته على جهاده ومرابطته والانقياد إلى آرائه وطاعته ، فجزاه الله عن الإسلام مـا جزاه ، فقد أوتي من الفضل ، ما لم يؤتِ أحد سواه وقد قام بأمور الجهاد لما قعد عنه عداه ، وقد اقتنى الأجرين وحاز الشكرين ، وقام بالحقين وأدى مـا يجـب عليـه مـن الغرضـين فشكره مخلد في صحائف الإمام ، وحمده تنطق به ألسنة الأقلام وقد أهل له في الآخرة عن هذا السعي المشكور دار السلام "[263].

(263) ابن الفرات : المصدر السابق ، جـ4 ، قسم 2 ، ص 251 .

ملحـــق رقـم (2)

خطاب من صفي الدين إلى الملك المنصور صاحب حماة يهنئه بولادة الملك المظفر تقي الدين عام 599 هـ

"نهنئ مولانا بالولد السعيد الميمونة غرته المبارك طلعته ، العظيمة موهبتـه المـشكورة من الله منته، الطاهرة عترته، ولد يتحلى به أجياد الزمان وتهدى بقدومه ..... والأعيـان فتشرف الآفاق بمقدمه كما تشرف الدهر بفضل والده وكريم شيمه وكل مولود عقيقتـه ، وهذا المولود يعتق عنه الرقاب المسترقات"[264].

(264) نفسه ، ص 259 .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً ـ المخطوطات :

العيني : بدر الدين محمود العيني (ت 855 هـ) :

1- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، جـ 19 ، جـ 20 مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 1584 تاريخ.

ثانيًا ـ المصادر المطبوعة :

ابن أبي أصيبعة : موفق الدين بن العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس (ت668هـ).

1- عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، صححه امرؤ القيس الطحان ، المطبعة الوهبية 1882م.

ابن تغري بردي ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي (ت874هـ).

2- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، جـ 6 ، دار الكتب المصرية القاهرة 1935 – 1956م.

ابن الجوزي : شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي الشهير بسبط بن الجوزي (ت654هـ).

3- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، جـ 8 ، قسم 2 ، ط 1 الهند 1952.

ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (ت 681هـ).

4- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، 8 أجزاء ، تحقيق إحسان عباس ، ط بيروت ، 1968م.

ابن الساعاتي : بهاء الدين أبو الحسن علي بن رستم بن هردوز الخراساني (ت 604هـ).

5- ديوان ابن الساعاتي ، تحقيق أنيس المقدسي ، بيروت 1938 .

ابن سعيد : علي بن موسى (ت 673 هـ) .

6- النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، تحقيق حسين نصار ، ط دار الكتب القاهرة 2000م.

7- المغرب في حلى المغرب ، تحقيق زكي محمد حسن وآخرين ، جـ1 من القسم الخاص بمصر ، القاهرة 1953م.

ابن سناء الملك : هبة الله بن جعفر (ت 680 هـ).

8- ديوان ابن سناء الملك جـ 2 ، تحقيق محمد إبراهيم نصر ، القاهرة 1969 م.

ابن عبد الظاهر : محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن عبد الظاهر المصري (ت 692هـ).

9- الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، ط أولى، القاهرة ، 1996م.

ابن العديم : كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت 660 هـ).

10- بغية الطلب في تاريخ حلب 12 جزءًا ، تحقيق سهيل زكار .

ابن العماد الحنبلي : أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي (ت 1089هـ).

11- شذرات الذهب في أخبار من ذهب 10 أجزاء ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، دمشق ، 1406 هـ.

ابن العميد : المكين جرجس ابن العميد (ت 672هـ).

12- أخبار الأيوبيين ، القاهرة ، د . ت .

ابن عنين : شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر الدمشقي (630هـ).

13- ديوان ابن عنين ، نشر خليل مردم بك ، دمشق 1946م.

ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات (ت 807هـ).

14- تاريخ ابن الفرات / المجلد الرابع جـ 2 ، المجلد الخامس ط1 ، نشر حسن محمد الشماع ، البصرة ، 1967 م – 1970م.

ابن فرحون : برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون المالكي .

15- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، ط أولى ، القاهرة 1351 هـ.

ابن قاضي شهبة : أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة (851هـ).

16- طبقات الشافعية ، تحقيق الحافظ عبد العليم خان ، بيروت 1407 هـ.

ابن كثير : إسماعيل بن كثير القرشي أبو الفدا (ت 774هـ) .

17- البداية والنهاية ، جـ 13 ، ط بيروت ، د . ت.

ابن المقفع : ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين .

18- تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة ، المجلد الثالث جـ 2 ، نشره أنطون خاطر و د. أزولد بورمستر ، القاهرة 1970م.

وأيضًا : تاريخ مصر من بدايات القرن الأول الميلادي حتى نهاية القرن العشرين جـ 3 مجلد 2 و جـ4 مجلد 1 ، تحقيق عبد العزيز جمال الدين ، القاهرة ، 2006م.

ابن النبيه المصري : كمال الدين أبو الحسن علي بن محمد (ت 619 هـ).

19- ديوان ابن النبيه المصري ، تحقيق عمر محمد الأسعد ، القاهرة ، ط أولى ، 1969م.

ابن نظيف الحموي : أبو الفضائل محمد بن علي بن نظيف الحموي .

20- التاريخ المنصوري ، تحقيق أبو العبد دودو ، دمشق ، 1981م.

أبو شامة : شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة (ت 665هـ).

21- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، جزآن ، تحقيق : إبراهيم الزيبق ، بيروت 1997 م.

22- ذيل الروضتين تعريف محمد زاهد بن الحسن الكوثري ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1947م.

الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت 748هـ).

23- العبر في خبر من غبر ، 5 أجزاء ، تحقيق : د . صلاح الدين المنجد ، الكويت ، 1984م.

24- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، مجلد 13، تحقيق بشار عواد معروف، بيروت 2003 م.

25- سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، بيروت 1413هـ.

الصفدي : صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت 764هـ).

26- الوافي بالوفيات ، 29 جزءًا ، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، ط بيروت، 2000م.

العمري : شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت 749هـ).

27- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، جـ 11 الوزراء والكتاب ، تحقيق محمد عبد القادر خريسات وآخرين ، الإمارات ، 2004م.

القفطي : الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (ت 624هـ).

28- إنباه الرواة على أنباه النحاة ، جـ 1 ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة 1986م.

الكتبي : محمد بن شاكر أحمد الكتبي (ت 764هـ).

29- فوات الوفيات ، جزآن ، تحقيق : علي محمد بن يعوض الله ، عادل أحمد عبد الموجود ، بيروت ، 2000م.

المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت 845هـ).

30- كتاب المقفى الكبير جـ 4 ، تحقيق محمد اليعلاوي ، ط بيروت 1991م.

31- السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ 1 قسم 1 ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، 1939م.

32- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جزآن ، ط 1 القاهرة 1987م.

المنذري : زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (656هـ).

33- التكملة لوفيات النقلة ، مجلد 3 تحقيق د . بشار عواد معروف ، ط بيروت 1988م.

النعيمي : عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (ت927هـ).

34- الدارس في تاريخ المدارس ، نشره جعفر الحسني جـ 1 ، جـ2 ، دمشق 1948 م – 1951م.

النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت 733هـ) .

35- نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق : د . محمد ضياء الدين الريس ، جـ 29 ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1992.

ياقوت الحموي شهاب الدين أبو عبد الله (ت 626هـ).

36- معجم البلدان 5 أجزاء ، بيروت 1990م.

37- معجم الأدباء ، تحقيق د . إحسان عباس ، جـ 2 بيروت 1993 .

ثالثاً ـ المراجع :

1- خير الدين الزركلي ، الأعلام ، جـ 4 ط ثانية ، القاهرة ، 1959م.

2- محمود محمد الحويري : العادل الأيوبي ، صفحة من تاريخ الدولة الأيوبية ، القاهرة : 1979م.

obeikan.com